



أزمة علم النفس



تأليف : جورج بولتزير
ترجمة : د . لطفى فطيم
مراجعة : د . مصطفى زيور

في الفلسفة
والإنسانيات

أزمض علم النفس المعاصر

تأليف: جورج پوليتزير

ترجمته: لطفى وطيم

مراجعة وتقديم: د. مصطفى زبور

احد بالذات وذلك من منظور فلسفى مادى جدلى. اما الكتاب الذى ترجمه د. سيد عثمان فهو ينقد المناهج واساليب العمل التى يتبعها علم النفس والفارق الآخر ان كتاب بوليتزير صدر لأول مرة عام ١٩٢٩ اما كتاب ديز فقد صدر عام ١٩٧٢ . وقد سبق لبوليتزير ان اصدر كتابا آخر فى نفس الموضوع عنوانه " نقد اسس علم النفس " عام ١٩٢٨ .

ما اهمية كتاب بوليتزير ؟

ترجع اهمية هذا الكتاب الى كونه اضافة نظرية لا يستطيع أى مشتغل بعلم النفس أن يهملها ، ولكن للأسف لا نجد لها ذكرا فى كتب علم النفس الامريكى والبريطانية وذلك لكراهية اصحاب علم النفس الامريكى لوجهات النظر التى تستند الى الفلسفة المادىية الجدلية لأسباب لا تخفى على فطنة القارئ . وقد اعتمد المشتغلون بعلم النفس فى البلاد العربية على النقل من المصادر الانجليزية والامريكىة نقلا مباشرا بحيث يمكن القول ان ما يوجد من علم نفس فى البلاد العربية هو " علم نفس الخواجات " أى علم النفس الذى يتناول سلوك ومعتقدات ومشاكل المجتمعات الغربية والانسان الغربى والذى لا ينطبق علينا نحن ابنىنا الوطن العربى ، الا اذا كان هناك ما يسمى بالطبيعة الانسانية او النفسية الواحدة للبشر جميعا ، وهو افتراض لم تثبت صحته . فمعظم المنظرين فى مجال الشخصية يعتبرون ان الانسان هو نتاج بيئته ، وان عنصر الثقافة والتوصية له اكبر الاثر فى تكوين نفسية الانسان وعقله . وعندما نتحدث عن " العقل العربى " او عن الثقافة العربية " فأنا نصدىر سواى صرحنا بذلك ام لم نصرح عن موقف يسلم بوجود " عقل " و " ثقافات " أخرى يتحدد بالمقارنه معها العقل والثقافة اللذين نتحدث عنهما هذا شىء لا مفر منه اذا " بقدها تتميز الاشياء " . فعندما نتحدث عن

" العقل العربى " فنحن نميزه فى نفس الوقت عــــن
" العقل الغربى " .

ويتجدد نظام كل ثقافة – كما يقول كوسدورف –
" تبعا للتصور الذى تكونه لنفسها عن الله والانسان
والعالم وللعلاقة التى تقيمها بين هذه المستويات
الثلاثة من نظام الواقع . " فالثقافة الغربىة –
اليونانية عندها ان العقل يحكم العالم ، ذلك لأن
العقل – بمعنى النظام – هو اساسها وان من ينظر
اليها بعين العقل لا يرى فيها الا العقل . ومن هنا
كان العقل فى التصور اليونانى الارسطى هو " ادراك
الاسباب " وفى هذا الاتجاه نفسه سارت الفلسفة
الحديثة فى اوروبا . وسواء نظر الى هذا العقل على
أنه قائم بذاته مستقل عن فكره الله أو نظر اليه
على انه هو الله ذاته ، فان العلاقة بينه وبين نظام
الطبيعة تبقى علاقة مطابقة . ولقد انعكس هذا التصور
حتى على اللغة ، فنجد فى اللغات الاوربية ذات
الاصل اللاتينى ان كلمة *Raison* بالفرنسية و *Reason*
بالانجليزية تعنى فى آن واحد العقل والسبب . وعلى
الرغم من التطور الهائل الذى عرفه العقل الغربى
منذ هيراقليطس الى اليوم فان هناك ثابتين اثنيين
ينتظمان خط سير ذلك التطور ، ويجددان بالتالى بنية
العقل فى الثقافة الاغريقية الاوربية ، هــــذان
الثابتان هما: (١) اعتبار العلاقة بين العقل والطبيعة
علاقة مباشرة (٢) الايمان بقدرة العقل على تفسيرها
والكشف عن اسرارها . الثابت الاول يؤسس وجهة نظر
فى الوجود والثانى يؤسس وجهه نظر فى المعرفة .

المطابقة بين العقل ونظام الطبيعة والقول
بأن العقل يكتشف نفسه فى الطبيعة ومن خلال التعامل
معها ثابتان اساسيان فى بنية الفكر الغربى
– اليونانى – الاوروبى ، فلننظر الى ما عليه الحال
بالنسبة " للعقل العربى " ؟

سلاحظ اولاً ان ما يميز العقل العربى بوصفة عقل الثقافة العربية الاسلامية هو ان العلاقات داخله تدور حول ثلاثة اقطاب : الله والانسان والطبيعة .
واذا اردنا تكثيف هذه العلاقة حول قطبين اثنيين فقط كما فعلنا بالنسبة للعقل اليونانى الغربى ،
وجب ان نضع فى احدهما الله وفى الآخر الانسان اما الطبيعة فلا بد فى هذه الحالة من تسجيل غيابها النسبى ربما بنفس الدرجة التى سجلنا بها غياب الله فى بنية العقل اليونانى الاوروبى . بل ويمكن القول ان الدور الذى تقوم به فكرة الله فى الفكر اليونانى الاوروبى تقوم به الطبيعة فى الفكر العربى ، دور الوسيط او القنطرة : اذ توظف فكرة الله من اجل تبرير مطابقة قوانين العقل لقوانين الطبيعة ، وبالتالي من اجل اخفاء المصادقية على المعرفة أى جعلها يقينية . بعبارة اخرى تقوم فكرة الله بدور " المعين " للعقل البشرى على اكتشاف نظام الطبيعة واكتناه اسرارها .

اما فى " العقل العربى " كما تشكل داخل الثقافة العربية الاسلامية ، فالطبيعة هى التى تقوم بدور " المعين " للعقل البشرى على اكتشاف الله وتبين حقيقته كما يقول الشاعر :

تلك الطبيعة قف بنايا سارى
حتى اريك بديع صنع البارى

فى الثقافة العربية الاسلامية يطلب من العقل ان يتأمل الطبيعه ليتوصل الى خالقها : الله ، اما فى الثقافة اليونانية - الاوروبية يتخذ العقل من الله وسيلة لفهم الطبيعة .

واذا كان مفهوم العقل فى الثقافة اليونانية الحديثة والمعاصرة يرتبط " بأدراك الاسباب " أى

بالمعرفة ، فان معنى " العقل " فى اللغة العربية ، وبالتالى فى الفكر العربى يرتبط اساسا بالسلوك والاخلاق . ولا يظن احد ان مفهوم " العقل " فى الثقافة الاوروبية اليونانية لم يمتد الى الاخلاق او انه فى الثقافة العربية الاسلامية لم يمتد الى المعرفة ، ولكن فرق كبير بين الاتجاه من المعرفة الى الاخلاق ، والاتجاه من الاخلاق الى المعرفة ، فى الحالة الاولى وهى حالة الفكر اليونانى الاوروبى تتأسس الاخلاق على المعرفة ، اما فى الحالة الثانية ، حالة الفكر العربى فتتأسس المعرفة على الاخلاق ، ان المعرفة فى حالة الثقافة العربية لا تكون اكتشافا للعلاقات التى تربط ظواهر الطبيعة ببعضها البعض لا تكون عملية يكتشف العقل فيها نفسة من خلالها فى الطبيعة ، بل تكون التمييز فى موضوعات المعرفة حسية كانت أو اجتماعية ، بين الحسن والقبيح ، بين الخير والشر ، ومهمة العقل ووظيفته بل وعلاقته وجوده هى حمل صاحبه على السلوك الحسن ومنعه من اتيان القبيح .

ويتضح هذا المعنى فى مختلف الدلالات التى يتطلبها القاموس العربى لماده (عقل) حيث يكاد يكون الارتباط بين تلك الدلالات وبين السلوك الاخلاقى عاما وضروريا ، بل ويتضح كذلك فى جميع الكلمات التى ترتبط معها بنوع من القرابة فى المعنى مثل ذهن ونهى وحجا ... و جاء فى لسان العرب " وسمى العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط فى الهلاك أى يحبس " والنهى جمع نهية ، والنهية تنهى عن اقبيح " ... الخ اما فى القرآن فأننا سنجد هذا المعنى القيمى المرتبط بكلمه عقل وما فى معناها يعبر عن فى الاغلب العم عن التمييز بين الخير والشر . وبين الهداية والضلال ، ولعل مما له مغزاه فى هذا الصدد أن القرآن لا يستعمل مادة " عقل " فى صيغة الاسم ، فلفظة " العقل " لم ترد قط فى القرآن وانما وردت فى صيغة العقل فى معظم الحالات أى ان العقل اداة

للتميز بين الخبيث والطيب ، فالقرآن يؤنب المشركين لكونهم لا يميزون بين الحق والباطل - بالمعنى الاخلاقي " لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم اعيُن لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم اضل، اولئك هم الغافلون " الاعراف آية (١٧٩) ونجد هنا القلب والعقل بمعنى واحد والمغزى القيمي واضح . وفى نفس هذا المعنى وردت الآيـة التالية " ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون " (الانفال ٢٢) . وهناك آيات اخرى تربط بين العقل والهداية والمسئولية من ذلك الآيـة التالية " واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما افينا عليه آباءنا ، او لو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون . ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون " (البقرة ١٧٠-١٧١) .

صحيح اننا يمكن ان نلمس من خلال الدلالات المختلفة لكلمه عقل والكلمات الأخرى التى فى معناها ما يمكن ربطه بالنظام والتنظيم ، ولكن حتى فى هذه الحالة يظل الجانب القيمي حاضرا دوما . فالنظام والتنظيم فى المجال التداولى للكلمات العربية المذكورة تتجة دوما الى السلوك البشرى لا الى الطبيعه وظواهرها . ومن هنا يمكن القول ان " العقل " فى التصور الذى تنقله اللغة العربية المعجمية يرتبط دائما بالذات وحالاتها الوجدانية واجكامها القيمية . فهو فى نفس الوقت عقل و قلب وفكر ووجدان وتأمل وعبرة ... اما فى التصور الذى تنقله اللغات الاوروبية فالعقل مرتبط دوما بالموضوع ، فهو اما نظام الوجود ، واما ادراك هذا النظام ، او القوه المدركة .

ومن كل ما سبق نكون من الناحية المبدئية على الاقل - فى وضع يسمح لنا بالقول ان " العقل العربى " ... وبالتالي الثقافة العربية والشخصية العربية - تحكمه النظرة المعيارية للاشياء ، ونقصد بالنظرة

المعيارية ذلك الاتجاه في التفكير الذي يبحث عن مكانها وموقعها في منظومة القيم التي يتخذها ذلك التفكير مرجعا له ومرتكزا . وهذا في مقابل النظرة الموضوعية التي تبحث في الأشياء عن مكوناتها الذاتية وتحاول الكشف عما هو جوهري فيها . ان النظرية المعيارية نظرة اختزالية ، تختصر الشيء في قيمته ، وبالتالي في المعنى الذي يضيفه عليه الشخص او المجتمع والثقافة صاحب تلك النظرة ، اما النظرية الموضوعية فهي نظرة تحليلية تركيبية تحلل الشيء الى عناصره الاساسية لتعيد بناءه بشكل يبرز ما هو جوهري فيه . بعبارة موجزة العقل عندهم مرتبط بالبحث في الاسباب والعقل عندنا مرتبط بالبحث في الاخلاق .

ولقد لخصنا في الفقرات السابقة الاجتهاد النظري للمفكر المغربي محمد عابد الجابري (١) حول مسألة فهم الشخصية العربية او اصول العقل العربي ندلل بها أولا: على الدور المحدود " لعلم نفس الخواجات " في فهم نفسية الانسان العربي ، وثانيا على اهمية التفكير النظري الخلاق في علم النفس واستنادا الى ذلك نجد انه من الصعب استخدام التطبيق الغربي لعلم النفس في مجتمعاتنا . ولا يعنى هذا الكلام ألا نستفيد مما يعلمنا الغرب اياه ، بل يجب ان نستفيد منه ، ونضيف اليه ، واكرر نضيف اليه فبدون هذه الاضافة أي الابتكار النظري ، لا الاحصاءات ومعاملات الارتباط وتدوير المحاور وما شابه من فنون اللعب بالارقام ، الصادر عن الفهم الاصيل للواقع يظل علم النفس غريبا عنا .

(١) دكتور محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي ، دار الطليعة ببيروت الطبعة الثانية ١٩٨٥ .
(الفصل الاول) .

ولا يفوتنى أن اذكر ان هناك المثات من بحوث الماجستير والدكتوراه وغيرها فى مجال علم النفس ومعظمها بحوث ميدانية ولكن للاسف يبدو ان بها شيئا ما يجعلها غير قابلة للتطبيق او ان يستفيد منها أحد . واغلب ظنى ان هذا الاغتراب عن الواقع النفس للمواطن العربى هو السبب فى عدم فاعلية المشتغلين بعلم النفس فى الحياة العامة ، فى حين تبوأ غيرهم من خريجي الكليات العسكرية وغيرها المواقع الهامة فى المجتمع . وهناك طبعاً اسباب اخرى لذلك " الانطواء " ليس هذا هو مجال عرضها .

مربط الفرس اذن هو العجز عن تقديم مساهمات نظرية او الخوف من القيام بهذه المحاولات ، وبدون تقديم نظرية او نظريات عربية فى علم النفس سنظل على هذا الحال . يقول المفكر المغربى عبداللـه العروى(١) : ان موقفنا اليوم يتلخص فى رفض تراثين تراث الثقافة المسيطرة على عالمنا الحاضر التى تدعى العالمية والامامية وتعرض نفسها علينا الى حد الالزام والضغط ولا تفتح لنا بابا سوى باب التقليد او الاعتراف بالقصور ، وتراث ثقافة الماضى الذى اخترناه تعبيراً لنا فى عهدنا السابقة لكنه لم يعد اليوم يعبر عن جميع جوانب نفسياتنا . نحن مطالبون بنهج طريق ثالث مبنى على التجربة والمخاطرة ولكن دون هذه الغاية شروط هى الوعى ومعرفة الثقافة المعاصرة معرفة دقيقة واطلاع على معطيات تجربتنا التاريخية .

ولعل الخطوه الاولى فى تقديم المفاهيم النظرية هى الموقف الانتقادى الذى لا يكتفى باظهار الجوانب المتفسخة فى الحضارة الغربية وانما يدرك ايضا ضرورة انتقاد الذات وهذا الموقف الجدلى سيؤدى

(١) عبد الله العروى : العرب والفكر التاريخى ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٣ .
(ص ١١٣)

بالقطع الى طرح التساؤلات الفلسفية الاولى : ما الوجود ما الزمان ما الانسان ... الخ. وذلك فى اطار الخصوصية الثقافية وهذا الموقف هو الذى يودى الى ظهور الابداع الثقافى المطلوب . وسبق لنا أن تناولنا هذا الموضوع فى عرضنا لموضوع حركة رد الطب النفسى "Anti psychiatry" فى اوربا حين قلنا انه رغم ان الاضطرابات النفسية ذات طبيعة شاملة فان الاشكال التى تتخذها والطريقة التى تدرك بها مطوعة ومحددة حضاريا الامر الذى يدعونى للقـول باعادة النظر فى النظريات الحضارية الغربية خاصة عند تناول الامراض النفسية . فالحضارات فى الشرق ودول العالم الثالث ليست مضطرة ان تسلك مسلك أوروبا وامريكا لكى تتقدم ، واعتقد ان الاخذ بفكرة المستعرض اقرب الى الصواب .

ومن هنا تأتى اضافة بوليتزير مثالا على الجهد الخلاق لنقد اسس علم النفس وتقديم تصور نظرى جديد . صحيح ان هذا الاجتهاد لم يجد حتى اليوم من يضعه موضع التطبيق ، الا اننا لا نستطيع تجاهلة اذا اردنا ان نفهم كيف يكون الابداع النظرى فى علم النفس . لقد حاول بوليتزير ان يضع اسسا لعلم النفس يستند الى الفلسفة الماركسية ، تلك الفلسفة التى تعتبر الانسان موجودا اجتماعيا وان سلوكه يتحدد بالتفكير والانفعالات ودرجة معرفة القوانين التى تحكم الطبيعة والمجتمع والانسان نفسه . وان الانسان لا يمكن ان يوجد بمعزل عن الآخرين ، فجوهر الانسان ليس تجريدا كامنا فى كل فرد واحد انما هو فى حقيقته جماع العلاقات الاجتماعية . وقد بينت الماركسية للمرة الاولى ان الدوافع الموضوعية الحقيقية التى تحدد نشاط الانسان تمتد جذورها فى النهاية الى الظروف المادية لحياته . وان السمات النوعية للإنسان ، تلك التى تعبر عن جوهره باعتباره " انسانا " وهى الوعى والحياة الروحية والقدرة على العمل والابتكار هى نتاج

للعمل الاجتماعى . وقد احل ماركس ، محل النظريات القديمة عن الطبيعة البشرية العامة ، فكرته عن طبيعة الانسان المحسوسة التى يحددها النظام التاريخى المحدد للمجتمع . وانه فى ظروف تقسيم العمل والتناقض الطبقي وسوء توزيع الثروة لا يستطيع الانسان ان يطور بحرية قدراته المادية والروحية ولا بد من ان يتطور حتما من جانب واحد ، وهو ما ينعكس قبل كل شىء فى التناقض بين العمل الذهنى والبدنى . وفى ظل الاشتراكية وحدها سوف يجد الانسان كل فرصة للتطور الشامل وتنمية ملكاته وميوله الفردية الى اقصى حد . وتتكون الماركسيه من شقين اساسيين المادية الجدلية والمادية التاريخية ، وتتضمن المادية الجدلية النظرة الفلسفية العلمية للعالم ، اما المادية التاريخية فهى العلم الذى يدرس القوانين العامة للتطور الاجتماعى واشكال تحققه فى نشاط البشر التاريخى وبالتالى فهى تشكل الاساس النظرى والمنهجى لكل العلوم الاجتماعية (١) والانسانية .

ومهما كان الرأى فى تلك الفلسفة وقضاياها فلا يمكننا انكارها ، اذا انها حقيقة من حقائق العصر لا تكتمل المعرفة بدونها ، و اراد بوليتزير ان يجعل الانسان الفردى بحياته المعاشة والملموسة موضوعا لعلم النفس وسمى هذا الموضوع "الدراما" و اساس الدراما هو الجدل ، ذلك الجدل الذى تضاربت فيه الآراء فوصف تارة بأنه تلاعب بالالفاظ ومصادرة على المطلوب ، وتارة اخرى بأنه تصيد للمتناقضات وتحطيم للمنطق ولذلك فهو كارثة على الفكر المعاصر ، بينما وصفه آخرون بأنه الفلسفة لا اكثر ولا اقل وان البديل الوحيد له هو الانكار الدوجماتيقي ، اى الاحتماء منه فى سواتر الاعتقادات الجامدة التى لا

(١) روزنتال ويودين ، الموسوعة الفلسفية ، ترجمه سمير كرم ، دار الطليعة ببيروت ، الطبعة الرابعة

يأتيها الباطل من امامها ولا من خلفها . والحق ان ما يقصد بالجدل (الديالكتيك *Dialectic*) هو وجود عقل جدلي أى انه صفة للفكر ويتم بسمات معينه هي : اولا التقابل بالتضاد او بالتناقض فكلما كان هناك تناقض او قضاء نشأت حركة للتخلص منه . والسمة الثانية للعقل الجدلي هي الكلية او الشمول اى انه يدرك الانياء الجزئية فى حقيقتها الكلية فيعرف حاضرها ومستقبلها ويعرف علاقاتها الحقيقية التى لا يكشف عنها وضعها المباشر ، اى انه باختصار يدرك الامكانات الحقيقية التى يتضمنها الشيء . وبسبب عنصر الشمول هذا تعارض الفلسفة الجدلية باستمرار الفلسفات الواقعية والوضعية التى تقتصر على الجزئى و المعطى ، فالكلى اكثر من الجزئى ، ولذلك فان امكانات البشر والاشياء لا تستند الى الصور والعلاقات المعطاة التى قد يظهرون بها واقعيًا . والخاصية الثالثة للعقل الجدلي هي انه هو نفسه مركب ، فهو يعارض العقل التحليلى او الوضعى ولكنه يشمل فى جوفه فى ذات الوقت .

ولا يدرك غالبية من يعملون فى مجال علم النفس اهمية الفلسفة او الجدل لانهم اما ببساطة لا يدرون عنها شيئا ، فمعظمهم من الذين تخرجوا من كليات التربية وتخصصوا فى علم النفس " على كبر " ، فلا يعرفون الجدل ولا السلب ولا النفى ولا الانتقاد ولا الافكار ولا أن المعرفة تبدأ بكلمه " لا " او انهم من المعادين للفلسفة والاجتهاد النظرى والقانعين بترجمه الاختبارات الامريكية او التابعين للسلوكية نحن اذن كما يقول عبدالفتاح امام (١) نبغى احياء ملكة السلب التى ضاعت عندنا تماما ، فكل حياتنا ايجاب ، ونحن احوج ما نكون الى الفكر الجدلي الذى

(١) د. عبدالفتاح امام ، جدل الانسان ، دار انستشوير ، بيروت ١٩٨٤ (ص ٢٤٥) .

يضطربنا فى جميع لحظات الحياة الفكرية الى ان نعيد بناء المعرفة كلها ، اما المعارف التى لا تكون موضع سؤال فانها تتحول فى النهاية الى عقبة فى وجه تقدم المعرفة . فلدينا من الاجوبة الجاهزة اكثر الف مره مما نطرح من اسئلة ولهذا فنحن متوقفون عن النمو الروحى او العقلى ان شئتم .

ولقد كانت محاولة بوليتزير - فى اعتقادى - محاولة للخروج من نطاق الفهم الجامد الذى فرضته الماركسية الرسمية على المفكرين . فمجرد اختياره " للدراما " موضوعا لعلم النفس يعنى انه يرفض الفهم الباقلوفى لعلم النفس ، وبالتالى السلوكية التى مال اليها حيناً بعض المفكرين الفرنسيين فى علم النفس . يقول لوسيان سيف⁽¹⁾ ان بوليتزير قد ابدع فى نقدة للتصنيف المجرى للوظائف العقلية التى كان علم النفس فى وقته شديد الاعجاب بها ، ولكنه لم يحاول تقديم بديل ، انما رسم بدايات مهمة يجب على الخلف ان يتابعوها ، وانها لا تقدم هى نفسها حلا ، ثم يقول ان المهمة هى تأسيس علم نفس جديد مستقل عن علم النشاط العلقى وعلم السلوك وهو ما يقابل بشكل او بآخر علم الدراما الذى اقترحه بوليتزير ، او ما يسميه " سيف علم الشخصيه " .

وقد اخطأ بوليتزير - نظرا لظروف علم النفس فى ذلك الوقت - عندما قال فى نهاية كتابه ان السيكوتكنيك أى الاختبارات النفسية واستخدامها هو الطريق لوضع افكاره موضع التطبيق ، ولكن ذلك

(1) Luceinseve, "Marxism and theory of personality",
Lawrance & Wisheirt, London, 1975
p. 36.

لا ينفى عن فكرته اللامعة عبقريتها وضرورة متابعتها
فالاختبارات النفسية ينظر اليها هذه الايام بشيء كثير
من التحفظ . فقد اجرت الجمعية النفسية البريطانية
استفتاء بين اعضائها عام ١٩٨٠ (١) بشأن ارائهم
حول استخدام الاختبارات النفسية فأجاب احدهم " اتوقع
ان الاختبارات كما نعرفها اليوم سيكون مصيرها مصير
الفرينولوجيا " . ولم تكن كل الاجابات بهذا التشاؤم
وان انتقد معظم الاعضاء موقف الاختبارات وطالبوا بأن
تكون " اقل اكاديمية " وان " تتوجه الى الحياه
اليومية المعاشة " وان تكون " اكثر تحفظا فيما
تدعيه لنفسها " وأن " هناك توسع مبالغ فيه فى
الوان الاختبارات " . الخ

هذه بعض الافكار الانتقادية التى دارت برأسى
عند تقديم الطبعة الثانية من هذا الكتاب القيم
ارجو ان يتقبلها الجميع بصدق ورحب ، فما قصدت
الا الخير .

لطفي فطيم

كلية الاداب - جامعة صنعاء

١٩٨٦

* *The use of tests by psychologists: Report on a survey of B.P.S members, "Barbara Tyler and Ken Miller"*

* *Bulletin of the B.P.S. Nov. 1986 Vol.39 (403 - 410).*

LA CRISE DE LA PSYCHOLOGIE CONTEMPORAINE

par

Georges Politzer

تصدير

بقلم: الأستاذ الدكتور مصطفى زبور

يضم هذا الكتاب مقالين نشرتا عام ١٩٢٩ في العددين الوجدانيين اللذين ظهرا من « مجلة علم النفس العياني » (١) بقلم الفيلسوف الفرنسي الماركسي جورج بوليتزر * ثم جمع زملاء بوليتزر - بعد اعدامه ابان الاحتلال النازي - هذين المقالين عام ١٩٤٧ في كتاب بعنوان « أزمة علم النفس المعاصر » ولا شك أن القارئ سيتساءل عن وجه الحاجة الى ترجمة مقالين نشرتا منذ نحو أربعين سنة ، فضلا عن وجه الصواب في الاحتفاظ بالعنوان « أزمة علم النفس المعاصر » * والجواب بسيط ، اننا نعتقد أن النقد الذي وجهه بوليتزر لعلم النفس الذي عاصره في أواخر العشرينات لا يزال معظمه يصلح نقدا لعلم النفس في السبعينات * ويكفي أن أذكر للقارئ أنه لا يوجد حاليا في فرنسا ولا في أي مكان له نصيب من الثقافة الفرنسية - لا يوجد مشتغل بعلم النفس أو الطب النفسي أو التحليل النفسي أو الفلسفة من يجيل اسم محرر هذين المقالين والمفهوم الذي أبرزه ،

(١) مجلة علم النفس العياني La revue de psychologie concrète

أعنى « الدراما » بوصفه ما ينبغي أن يكون عليه محور أى بحث فى علم النفس ، على النحو الذى ناقشه فى كتابه الذى صدر سنة ١٩٢٨ بعنوان « نقد أسس علم النفس » . ولعل القارىء يزداد اقتناعا بقيمة نقد بوليتزر الذى تقدم بعضه فى هذا الكتاب اذا ذكرنا له أن الفيلسوف الفرنسى الكبير الراحل موريس مرلوبونتى جعل بين مراجعته فى كتابه المعروف « ظاهريات الإدراك الحسى » كتاب بوليتزر المشار اليه كما ان الفيلسوف الطبيب النفسى الكبير « منكوفسكى » ضمن كتابه الذى ظهر سنة ١٩٦٧ بعنوان « بحث فى علم النفس المرضى » نقد بوليتزر ومفهوم الدراما السابق ذكرهما وأخيرا وليس آخرا ، فقد قامت أكبر دار للنشر فى فرنسا أعنى Presses Universitaires de France بإصدار الطبعة الثانية لكتاب بوليتزر « نقد أسس علم النفس » سنة ١٩٦٧ أى بعد أربعين سنة من صدور الطبعة الأولى ، وهو أمر لا يظفر به الا أمهات الكتب التى تبقى على مر السنين وتدخل فى سجل الانتاج الفكرى الدائم . .

وقد بدأ الاستاذ لطفى فطيم ترجمة «أزمة علم النفس المعاصر» فى أوائل العام الماضى بوصفه النص الوحيد المتاح من نقد بوليتزر حيث أن كتابه « نقد أسس علم النفس » كان قد نقد من زمن بعيد . والآن وقد ظهرت منذ بضعة أشهر الطبعة الثانية لكتاب « نقد أسس علم النفس » فانى أرجو ان يقدم الاستاذ فطيم على ترجمة هذا الكتاب النفيس وان تقوم دار الكاتب العربى بطبعه ونشره حتى تكتمل لدى القارىء المختص والقارىء المثقف غير المختص صورة هذا النقد الفلسفى لأسس علم النفس الذى أعتقد ان القارىء العربى فى حاجة اليه لاكثر من سببٍ أكتفى بذكر بعضها :

أولا : من الملاحظ أن حظ القارىء العربى من الانتاج الفكرى الفرنسى فى ميدان علم النفس أصبح ضئيلا منذ الحرب العالمية

الثانية بالقياس الى حظه من الانتاج الانجلوسكسونى ، على الرغم من أن هذا الانتاج الاحير لا يغطى كل ميادين الدراسات السيكولوجية وخاصة ميدان النقد ، فلسفى للدراسات الانسانية المعاصرة الذى يستثير اهتماما كبيرا فى فرنسا ومعظم دول أوروبا الغربية لما لهذا النقد من خطر فى توسيع أفق الباحثين وبيان ما ينبغى عليهم أن يفتنوا اليه من جدوى هذا النهج أو ذاك من البحث ، وما يقتضيه ذلك من استبصار بموضع أقدامهم من الدرب الذى يسرون عليه ومن مراجعة لما يعتنقون من المصادر والمحكات والضوابط ومكانة هذا كله من أهداف العلوم الانسانية بعامة والسيكولوجية بخاصة على النحو الذى يتطلع اليه معاصروهم حتى يجنبوا أنفسهم مزالق الدجماتيقية المدرسية أو العزلة عن تيارات فلسفة التصور والبحث فى العلوم الانسانية لدى معاصريهم . وليس بخاف أن بعض الاكتشافات العلمية الكبرى تحققت بفضل نقد فلسفى منهجى مهد الطريق لهذه الاكتشافات ..

ثانيا : يبدو لى أن جمهرة علماء النفس العرب ينصرفون عن الاطلاع على الانتاج الفلسفى المعاصر ، وان أكثرهم انصرفا هم هؤلاء الذين بدءوا دراساتهم العليا بدراسة الفلسفة ، وقد وضع لى من مناقشاتهم ومما يكتبون ، أنهم ينظرون الى الفكر الفلسفى نظرة ارتياب وحذر ، وحجتهم فى ذلك أن علم النفس لم يقف على قدميه بوصفه علما الا بعد اطراح منهج التأمل الفلسفى والالتزام بمنهج العلوم المضبوطة ، ومن ثم فان العيد السابق على هذا الالتزام انما هو فيما يرون بمثابة « عصر الجاهلية » فى علم النفس فكان شأنهم شأن الأطباء فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن فى تشبيهم بمنهج علوم الفيزياء والكيمياء فى تفسير الوظائف الفسيولوجية فى الصحة والمرض جميعا طبقا لتعاليم هذيهولتز بالاضافة الى قواعد البحث التشريحي الهستولوجى أى

علم الباثولوجيا Structural Pathology على النحو الذى أرسى قواعده « فيركاو » . وبلغ من شدة اعتناق الاطباء لمنهج العلوم «المضبوطة» ان التزموا بها فى ميدان الامراض العقلية والنفسيه ، وانحصر البحث فى اصول هذه الامراض - حقه طويله - فى انحصار الميرسكوبى خلايا المخ ، أملا فى انتشاف الحُلايا التالفة ونوع التلف الذى كان عله المرض العقلي أو النفسى . فلما تبين أن أكثر الأمراض العقلية انتشارا وهى الفصام بأنواعه ومرض الهوس والاكتئاب ، فضلا عن الامراض العصائية على اختلاف أنواعها لا ترجع الى أى نوع من التلف فى خلايا المخ ، ولا الى أى اضطراب فى كيمياء الحُلايا العصبية اضطر أطباء النفس بعد تردد الى الاصغاء الى قضايا التحليل النفسى ومكتشفاته « السيكولوجية » أى الى العلية النفسية ، حتى وضع بما لا يقبل الشك أن فى الجنون عقلا . وبعبارة أخرى فان الحتمية السيكولوجية - وهى لا تستبعد احتمال اصول عضوية رغم انها لا تزال مجهولة - تشير الى وجود علية نفسية فى تكوين الاعراض أى وموجود معنى ودلالة فى العقل والجنون جميعا . وقد أبرز هذا المفهوم الجديد فى الطب النفسى الفيلسوف الوجودى والطبيب النفسى الالمانى الكبير كارل ياسبرز - وهو ليس محللا نفسيا - فى كتابه المشهور « علم النفس المرضى العام » (١٩١٣) عندما فرق بين « التفسير » و « الفهم » من حيث أن ظاهرات العلوم الفيزيائية تكون موضع تفسير على ، على حين ان طبيعة الظاهرات النفسية المرضية تقتضى أن يتجه التفسير فيها وجهة « الفهم » السيكولوجى أى ادراك المعنى . فاذا نظرنا فى الأمراض العضوية فى الطب العام - تلك التى قامت بصددها تعاليم « هلمهولتز » و « فركاو » السابق ذكرها - وجدنا طائفة منها وهى التى اصطلح على تسميتها منذ نحو ثلاثين سنة : الأمراض النفسية الجسمية Psychosomatics (قرحات المعدة والاثنى عشر وضغط الدم

الجوهري وأمراض الحساسية وما إليها) يمكن وراء أعراضها العضوية مشكلات نفسية . والطريف في الأمر هنا أن السبب الرئيسي في أن الطب ظل عاجزا إزاء هذه الأمراض طوال نصف قرن من الزمان هو نفس التعاليم التي يرجع الفضل إليها في تقدم الطب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، أعنى تعاليم « هلمبولتز » و « فركاو » في التشبث بمناهج العلوم الفيزيائية الكيميائية والفحص الميكروسكوبي . وعندما وضح أن الأعراض العضوية في الأمراض السيكوسوماتية يقتضى تفسيرها فهما « للعنصر الانساني » طبقا لمكتشفات التحليل النفسى في ميدان أمراض النفس ، تغلب الطب على عجزه في تناول الأعراض العضوية في الأمراض السيكوسوماتية وعلاجها . أما « العنصر الانساني » فهو ما يعبر عنه پوليتزر بكلمة « دراما » مستبعدة المعنى « المأسوى » للكلمة ، أو كما يقول في كتابه « نقد أسس علم النفس » علم النفس بضمير المتكلم *La Psychologie en première personne* بوصفه النمط المنهجي الذي يرتضيه في علم النفس عندما يحيل الأمر كله الى « الأنا » في مواجهة دياكتيكية مع « أنا » آخر وهو ما يعبر عنه مرلوبونتي في قوله « انه المعنى الذي يبين في تقاطع خبراتي بخبرات الآخر ، بتشابك هذه بتلك » ، ومن ثم فان النمط المنهجي في علم النفس بضمير الغائب

La Psychologie en troisième personne

في اصطلاح پوليتزر انما ينتقل علم النفس الى ميدان العلوم الفيزيائية ، وهو خطأ منهجي يقضى على فهم الانسان بما هو انسان ، ويبرز الخطأ الاستمولوجى الصارخ الذي يبين عندما يتضح أن الطب العضوى أضحي أكثر سيكولوجية من السيكولوجيا . .

وخليق بنا أن نتساءل ما هو حال السيكولوجيا الرسمية المعاصرة - أى بعد مرور أربعين سنة على نقد پوليتزر . أن الأمر

مع السيكولوجيا المعاصرة يتلخص فيما أرى - إذا أردنا الإيجاز -
نى أنها وقعت فى نفس الخطأ الإستمولوجى الذى وقع فيه الطب .
فقد أراد علماء النفس لعلمهم أن يدخل حظيرة « العلوم المضبوطة »
ويحظى بما تحظى به هذه العلوم من الدقة والاحترام ، فاصطنعوا
أدوات القياس الفسيولوجى فى معامل علم النفس ، وانتهوا الى
نتائج ما كان يمكن أن تكون الا من قبيل ما يحصل عليه علماء
وظائف الاعضاء - نتائج لا تلقى أى ضوء على الانسان بما هو
انسان . وعندما تبين أن الأمل الذى تولد لدى علماء النفس عندما
اكتشف يافلوف « الأفعال المنعكسة الشرطية » فى أن يصبح علم
النفس « علما مضبوطا » لم يكن الا سرايا ، من حيث أن الأفعال
المنعكسة الشرطية لا تفسر بناء السلوك وانما هذا البناء structure
هو الذى ينظم الأفعال المنعكسة الشرطية وانتهت بذلك قصة
« السلوكية » ، كما صاغها واطسون - لم يبق بعد ذلك فى الميدان
من محاولات « الضبط » الا تياران : تيار القياس السيكولوجى فى
موضوع « الشخصية » وتيار نظريات التعلم .

أما عن نظريات التعلم ، فليس بخاف أنها بعض مخلفات
السلوكية ، وقد وصل بعض هذه النظريات - مثل نظرية ك . هل
أبرز أصحاب نظريات التعلم - الى درجة من التعقيد فى صياغتها
الرياضية بما فيها من مسلمات ولوازم المسلمات واصطلاحات فنية
ما يذكرنا بنظريات الفيزياء المصاغة رياضيا . فاذا تساءلنا عما
يمكن أن نفيده من هذا التعقيد النظرى وجدناه عاجزا عن أن يتخطى
المستوى الفسيولوجى : طاقة رد الفعل والكف الرجعى وما الى ذلك
من المفاهيم التى تفترض ان الانسان جهاز قائم بذاته من ردود
الأفعال وكفها .

وإذا بحثنا فى غضون هذا النظام النظرى الذى يبهرتنا

بمعادلاته الرياضية عن الانسان بما هو انسان ، عن هذه العلاقة الحميمة حاملة « المعنى الذى يبين فى تقاطع خبراتى بخبراتك » - اذا تساءلنا عن أحوال الانسان ومصيره ، هذا الذى يطلق عليه فى العبارة الفرنسية التى يصعب ترجمتها *La condition humaine* لا نجد لشيء من ذلك اجابة شافية فى نظرية هل ، لانها نظرية بضمير الغائب باصطلاح پوليتزر ، لا يعرف « أناى » ماذا يصنع بفاهيمها الفسيولوجية - الفيزيائية . انها كغيرها من نظريات التعلم تفترض ان علم النفس *One body psychology* على حين ان أبسط تفكير فى «دراما» الانسان ، هذا الذى يجعله سعيدا أو شقيا لا يمكن أن يكون الا *Two body psychology* ، ثم *Three body psychology* وهكذا . . . واذا اتخذنا من تطبيق نظريات التعلم فى ميدان العلاج النفسى ذلك التطبيق المسمى *Behaviour therapy* محكا نزن به جدوى هذه النظريات ومنطقيا وجدنا عجبا . . . فيها هو البروفسور أيزنك يعقد مقارنة بين التحليل النفسى والعلاج السلوكى فيكتب: ان التحليل النفسى يعتبر الأعراض العصابية نتائج صراعات لا شعورية على حين أن العلاج السلوكى العلمى يعتبر الأعراض استجابات شرطية لا توافقية ، وأن التحليل النفسى يعتبر الاعراض العصابية شواهد على « الكبت » فى حين ان العلاج السلوكى يعتبرها شواهد على « تعلم خاطئ » ، وأن التحليل النفسى فى علاجه يتناول الاعراض بوصفها نتائج لحبرات تاريخية (ماضية) على حين أن العلاج السلوكى يتناولها بوصفها عادات قائمة حاليا وأن النظرة النشوئية (التاريخية) لا قيمة لها . وأن التحليل النفسى يرى أن الشفاء مرهون بتناول الديناميات اللاشعورية القابعة تحت الاعراض ولا يتناول الاعراض نفسيا على حين أن العلاج السلوكى يحقق الشفاء بعلاج الاعراض نفسيا وذلك « باطفاء » الاستجابات الشرطية التى يعوزها التوافق وينشئ بدلا

منها استجابات شرطية مناسبة وأن التحليل النفسى يعتمد على تفسير الاعراض والاحلام والهفوات على حين أن العلاج السلوكى يعتبر هذا التفسير لا قيمة له ولا جدوى منه وأخيرا فإن التحليل النفسى يرى أن تناول الطرح Transference أمرا أساسيا فى شفاء العصاب على حين أن العلاج السلوكى يرى أن العلاقة الوجدانية التى تقوم بين الطبيب ومريضه ليست من ضرورات الشفاء . وهكذا يتضح منطق نظريات التعلم الذى يستند اليه العلاج السلوكى ويبين انها تعتبر الانسان منفصلا عن ماضيه ، منفصلا عن يعيش معهم من الناس (لا قيمة لظاهرة التحويل) قائما بذاته وفى ذاته ، فاذا كان شقيا فذلك لأنه لم يحسن تعلم العادات الجيدة . .

والنتيجة المنطقية من ذلك أن الاعراض العصابية لا تحمل معنى ولا دلالة وأن شقاء الانسان وسعادته فى خبراته المعاشه مع غيره من الناس لا معنى لها ولا دلالة . أما التراث المعرفى المتراكم من خبرات مئات من أطباء النفس المعنيين بالعلاج النفسى زهاء ثمانين عاما فمكانه سلة المهملات - باسم « العلم » .

أما تيار القياس السيكولوجى فى موضوع الشخصية فيمثلها فرسان ثلاثة هم « كاتل » ، و « جلفورد » و « أيزنك » ويتلخص الامر معهم فى انهم نقلوا أساليب القياس التى أثبتت جدواها فى ميدان القدرات العقلية الى ميدان لا تصلح له اذا كان الهدف هو « الفهم » والتفسير الفاهم : أى ميدان الشخصية . ويكفينى هنا - بغية الايجاز - ان أسجل ما يقوله فى هذا الصدد أبرز علمائنا العرب فى هذا الميدان تلميذ ايزنك : الدكتور مصطفى سويف الذى يعتبر ثقة فى المستوى الدولى بما نشر من بحوث ممتازة . يقول د . سويف فى كتابه القيم : « علم النفس الحديث . معاله ونماذج

من دراساته « (صفحة ١٩٩) » وبعد . فماذا نفيد من هذه الصورة ؟
 (ابعاد الشخصية الانسانية) هذه الصورة تقدم لنا اطارا أساسيا
 لتصنيف جميع مظاهر النشاط النفسى . انها لا تقدم لنا تعليلا أو
 تفسيرا لهذه المظاهر . يجب أن يكون هذا واضحا حتى لا نطالبها
 بما لا يتفق وطبيعتها . انها تقدم تبويبا أو تنظيما فحسب . . .
 وفى اعتقادى انى لم أعد فى حاجة الى التعليق وانما أصيغ المسألة
 على النحو الآتى : لا يمكن لأى عالم مخلص أن ينكر ما فى دراسات.
 أبعاد الشخصية من صفات الدقة والضبط العلمى وجدواها فى
 ميدان التشخيص الطبئفسى . ولكن يبقى بعد ذلك اننا فى مجال
 الشخصية نقف فى حيرة Dilemma بين دقة العلم العاطل
 عن التفسير الفاهم و ثراء التفسير الفاهم كما تقدمه لنا مكتشفات
 التحليل النفسى العاطلة عن الدقة العلمية. من النمط المؤلف فى
 العلوم الفزيائية .

ولحسن الحظ - حظ العلم أو قل المعرفة بعامة - ان مصير
 علماء النفس فى هذه الحيرة يختلف عن مصير حمار بوريدان
 الشهير . L'âne de Boridane

فبعضهم يلقون بقضايا التحليل النفسى فى اليم فرحين فرح
 من يتخلص مما يؤذيه ويشمرون عن ساعد الجد فى سنبل المزيد
 من القياس ، كما هو الحال مع البرفسور ايزنك . والبعض الآخر
 -- مثل البروفسور لاجاش استاذ علم النفس بالسربون - لا يروون
 فى الأمر حيرة على الاطلاق ، فيقول لاجاش : « وما الصراع بين علم
 النفس التجريبي (المصطنع لأساليب القياس) وعلم النفس الاكينيكي
 (المصطنع لمنهج التحليل النفسى) غير مرحلة ولت من تاريخ علم
 النفس » . ولكنى أخشى ان ما ذهب إليه الزميل لاجاش انما هو
 من قبيل « تحقيق الرغبات » . . . حقا ان ثمة دراسات تجريبية

اتخذت موضوعا لها « الديناميات » النفسية التي هي الموضوع الاساسى للتحليل النفسى ، غير أن هذه الدراسات لا تعدو أن تكون تحقيقا هزيبا لبعض الديناميات النفسية الثانوية . أما الموضوع الاساسى لعلم النفس كما يراه المحللون النفسيون هو هذا الحوار الديالكتيكي بين « الانا » و « الانا الآخر » ، بين « الأنا » و « الأنت » ، حوار درامى لا ينك صعدا هابطا متارجحا تارجح أحوال الانسان مما يجعل مهمة الضبط العلمى عسيرة - ولا ينقطع الا بانقطاع احياء النفسية كما هو الحال فى المرض العقلى المستفحل ، حيث يحل محل الحوار الديالكتيكي المستند الى تعيين الذات Identification بذات الآخر - حوار اجترارى تتفادى به الذات الالتقاء الديالتيكى بذات الآخر . ومن ثم فان المحللين النفسيين يرون أن اى دراسة فى علم النفس لا تتخذ هدفا لها هذه العلاقة « بين الذاتية » Intersubjectivity أما تقع خارج المرمى اذا صح استخدام لغة كرة القدم .

هذه الصياغة لموضوع علم النفس انما هي صياغة بلغة الستينات لما حاول بوليتزر صياغته بلغة العشرينات وهذا يفسر لنا لم اتخذ بوليتزر قضايا التحليل النفسى نماذج لما ينبغى أن يكون عليه موضوع علم النفس العياني ذو الطابع الدرامى - بالرغم من النقد الذى وجهه اليها من حيث الصياغة النظرية فى كتابه « نقد اسس علم النفس » .

حقا أن بعض النقد الذى يصوغه بوليتزر فى هذا الكتاب قد استنفد أغراضه نتيجة لتقدم علم النفس فى الاربعين سنة الماضية ، ولكن يبقى بعد ذلك ما فى نقده لجوانب أخرى من علم النفس من الأصالة والعمق ما يجعله خليقا أن يفيد منه القارئ العربى . وليس أقل مآثر بوليتزر - وهو الفيلسوف الماركسى - أنه هاجم علم النفس

الرسمى فى نظر الماركسية أعنى علم النفس القائم على الافعال المنعكسة الشريطية وقبوله للقضايا الأساسية فى التحليل النفسى وهو العلم « البورجوازى » فى نظر الماركسية « الضيقة » وليس من شك ان النقد الذى وجهه جان بول سارتر فى كتابه « نقد العقل الديالكتيكى » الى الماركسية عندما هاجم التموضع objectivism فى المنهج الماركسى الذى يحاول رد الابنية النفسية العليا الى الابنية الاقتصادية ودمغها بأنها تجهل الانسان بما هو انسان فى قوله « انها (اى الماركسية) فقدت تماما المعنى الذى يجعل من الانسان انسانا » ص ٥٨ أقول أن هذا النقد لا ينطبق على پوليتزر - بالرغم من بعض ترده بصدد العامل الاقتصادى - من حيث أن پوليتزر أبرز مفهوم « الدراما » بوصفه المحور الذى ينبغى أن يدور حوله البحث فى علم النفس وهو كما - سيتضح للقارئ من صفحات هذا الكتاب - مفهوم يلح على « الموقف الانسانى » ، وعلم النفس بضمير المتكلم التى تكاد أن تكون ارهاصات لمفاهيم « المواقف » لدى سارتر ومفهوم « الوجود مع » mitsein ، لدى الوجوديين بعامة - على الرغم من أن هذه المفاهيم تعتبر فى نظر بعض الماركسيين مفاهيم « بورجوازية » . . .

بقيت كلمة عن الفلسفة المادية الجدلية التى يعتنقها المؤلف .
 أما عن الجدل « الديالكتيك » فليس يخاف أنه أضحى مفهوما أساسيا فى الفلسفة المعاصرة كلها بل فى العلم المعاصر ، فضلا عن أنه مفهوم أساسى فى التحليل النفسى ، بالرغم من أن فرويد لم يستخدم هذا المصطلح ، فالصراع بين جوانب الشخصية والتسوية بين المقضبة ونقيضها فى جماعتهما (These, antithese, synthese) على نحو موفق هو الصحة ونحو غير موفق هو المرض انما هى نماذج واضحة لفهوم الديالكتيك الثرى .

أما عن المادية فلست أرى أن على عالم النفس ان يختار بينها وبين المثالية ، من حيث أن المادية تنسب في نهاية الأمر الى المادة القدرة على التفكير ، وفي اعتقادي أن مرلوپونتي حسم الأمر بالقياس الى عالم النفس في هذا الصدد في قوله في كتابه « بناء السلوك » : « طالما أننا نواجه سلوك الانسان « في وحدته » وفي كليته ، فلسنا ازاء واقعة مادية ولا ازاء واقعة نفسية وانما نحن ازاء كل دال (حامل للمعنى) أو بناء لا يحق لنا نسبته الى العالم الخارجي ولا الى الحياة الداخلية . ان الأمر هنا أمر الواقعية Réalisme بوجه عام » ص ٢٤٧ . . .

والى الزملاء اسوق هذه الكلمة الختامية : في اعتقادي انهم لا ينصفون علم النفس باعراضهم عن الاطلاع على الانتاج الفلسفي المعاصر ، هذا الانتاج الذي انزل الفلسفة من السماء الى الأرض أو على الأصح الى دنيا الانسان . ان الانسان بلحمه ودمه ، بشقائه وسعادته هو موضوع فلسفة الظاهريات الوجودية المعاصرة ابتداء من كيركجارد وهنرل الى ياسبرز وهيدجر ومرلو بوئتي وسارتر . واني اسألهم . لم يشغل الفلاسفة المعاصرون انفسهم بـ « الهم » ، وبـ « القلق » بوجود الانسان على حافة العدم . لم يشغلون انفسهم بدراما الانسان وتراجيديته ، بما تنضح به حياة الانسان من « عبث » irrational ولا معقول absurde — لم يشغلون انفسهم بذلك كله الا لأننا نحن علماء النفس لم نقدم لهم اجابات شافية عن استفساراتهم . ثم لم يتجه رواد الطب النفسي المعاصر الى فلسفة الظاهريات والوجودية وهم قوم تحفزهم اهداف عملية هي الشفاء لمرضى العقل والنفس وحاجتهم الى « فهم » مصادر أخطر ما يلزم بالانسان ، على الرغم من التقدم العظيم في ميدان الأقرباذين الطبقي ، وعلى الرغم مما

آفادوه من قضايا التحليل النفسى . . لست أشك فى أن السبب لا يخفى .

وبعد فهل نسى الزملاء أن كل رصيد قضايا الجشطالت نبع من فلسفة هوسرل مباشرة كما يقرر ذلك Boring فى كتابه «تاريخ علم النفس التجريبي» وان نظرية المجال لدى ك . لفين انما هى امتداد للجشطالت وانها فضلا عن ذلك استوحت فلسفة كاسيرر كما يقرر ذلك لفين صراحة (١) ، وان مناهج القياس الاجتماعى (السوسيو مترى) كما يقرر مورينو (٢) أثرت فيها فلسفة برجسون تأثيرا حاسما . وبعد ، فمهما يكن من أمر فلا خوف على علم النفس ولا على علمائه ولا هم يحزنون ما دامت القافلة تسير . وهى تسير . .

د . مصطفى زيور

K. Lewin : « Cassirer's philosophy of science and the social sciences », in « The Philosophy of Ernest Cassirer », Library of Living Philosophers, Evanston, Illinois, 1949. (1)

Moreno, J. : « Who shall survive », Bacon House, N.Y., 1953. (2)

البابُ الأول

علم النفس الأرسطوي وعلم النفس العاصي

ان السيكولوجيا الجديدة اى المختلفة عن السيكولوجيا النابعة من محاولات نهاية القرن الماضى بما تتضمنه من قضايا التأكيد والنفى المتصلة بهذه المحاولات - هى اليوم حقيقة اذا لم تكن ثابتة ثبوتاً فهى على الأقل أمل يرتجى وبالرغم من الجهود التى يبذلها كل يوم « دعاء المبادنة » لاطّبار كفاية البناء الأساسى لسيكولوجيا الأمس فى مواجهة المتطلبات التى تحملها الحركة الجديدة فان الدراسة التى نحن بصدها تبدأ من تأكيد عدم كفاية السيكولوجيا القديمة وشرعية أهداف السيكولوجيا الجديدة ووسط الأُسف والتردد من جانب غالبية السيكولوجيين فقد قررت دراستنا الحالية بحزم أن تعتمد على المحاولات السيكولوجية الحديثة التى تحاول أن تنفصل عن أسس السيكولوجيا القديمة تلك التى حظيت من زمن طويل باحترام التعليم الرسمى »

ان الوحدة هى بالتأكيد الحاجة الملحة لعلم النفس اليوم ولكن بناء علم لا يتضمن فقط الادراك الواضح لأسسه وانما يتطلب فى الوقت نفسه ازالة الأشكال الأسطورية وقبل - العلمية التى تمر بها كل العلوم وطالما أن أى علم من العلوم لا يمكن أن يكون وضعياً فى صورتين معا أو فى صور عديدة فان ازالة كافة الصور الحاطئة أو الناقصة يجب أن يصدر عن موقف موحد

وإذا كانت الوحدة يجب أن تكون الموضوع الأساسي في البرنامج الدراسي فعلى الدراسة الجالية الابدع الوحدة في الوقت نفسه تنحدر الى « الحل الوسط » وتبسيط الموقف الحالى بحيث نجد فى ناحية ، السيكولوجيا التى هى غير وضعية على الاطلاق وفى ناحية أخرى تلك التى تريد أن تكون وضعية بشكل مطلق . وهذه هى فى الحقيقة الثنائية الرئيسية التى توجد فى أساس كافة العلوم بالمعنى الدقيق للكلمة ، والتي منها صدرت العلوم فى سبيل الوصول الى تلك الوحدة التى نرغبها اليوم للسيكولوجيا .

ومن الواضح ان الحاجة الى نقد السيكولوجيا الكلاسيكية وارساء أسس السيكولوجيا الجديدة هى اليوم أكبر مما كانت عليه بالأمس . ومع أن هذا المشروع المزدوج لا يمكن أن يتحقق بواسطة أفراد منعزلين ولا بواسطة اتجاهات بعينها ، الا أنه فى الواقع لا يتولى هذه المهمة الآن الا أفراد معزولون واتجاهات خاصة .

فرؤية الأخطاء وادراك الاصلاحات التى يجب انجازها لا بد أن تنبع بالتأكيد من أبحاث وضعية وهى بالضرورة خاصة ، ولكن لا يمكن أن يؤدى أى بحث خاص مهما كانت قيمته الوضعية الى ذلك وحده اذ لن يصل الى الرؤية المتكاملة للأخطاء ولا الى ادراك الاصلاحات فى شمولها وتدفع الأبحاث الخاصة المعزولة عن بعضها البعض أصحابها الى أن يستعوضوا عن التعميق الكامل للنقد الذى يقدمونه وعن الاصلاحات التى يتطلبها هذا النقد « بحلول وسط » وأبنية نظرية لا تؤدى من بعض الوجوه الا الى عرقلة التقدم الحقيقى .

ونحن نرى اليوم اتجاهات بعينها تكفى بتأكيدات « دوجاطيقية » (تقريرية) - بالمعنى المعروف لدى (كانط) لهذه الكلمة - حول نقاط هى نفسها التى ينفىها اتجاه آخر بناء

على نقد منظم • ويستبدل البعض الآخر « الحل الوسط » مع
السيكولوجيا الكلاسيكية أو بناء لفظيا بحث بالتعديل الذى هو
الفرض الجوهري وسبب الوجود لقيام اتجاه آخر حديث ، ويقوم
البعض الآخر على أساس ادراك ناقص لنقد أو لتعديل نظري أو
منهجي بينما نجد لدى اتجاهات عديدة أخرى النقد الكامل والمدقق
لنفس النقد أو الفكرة أو المنهج •

ونرى بعد جميع هذه الاتجاهات تقريبا تبحث عن السيكولوجيا
الجديدة هنا وهناك كما لو كانت نوعا من حجر الفلاسفة ناسين ان
هناك أبحاثا قدمت لا مجرد تحسينات بسيطة للسيكولوجيا
الكلاسيكية بل فكرة أساسية وجديدة تماما - على الأقل بالنسبة
للسيكولوجيين - تبدو فى نهاية الأمر انها ••• السيكولوجية
الوضعية •

وإذا كان من غير الشرعى ومن العبث انتزاع الاختصاصيين من
أبحاثهم الخاصة فإن هذه الحالة من الفهم التى تسمح اليوم لكل
سيكولوجى أن يحدد بدقة الظاهرة التى يشغل نفسه بها باعتبارها
ذات دلالة خاصة ، هذه الحالة تعود ببساطة الى ان عدم اتفاق
الرأى حول المجال الصحيح لعلم النفس ، لا يسمح بمعرفة دقيقة
لما هو أساسى بالفعل وما هو ليس كذلك وتجعل الأمر على غير
مانحِب ومن ثم يجب أن نعتاد على فكرة أن كل ما يخص أسس علم
النفس لا يمكن تحقيقه بصفة نهائية الا بالعمل الجماعى اذ أن أى
نظام فردى هو دائما بناء تعسفى وأن العمل الجماعى وحده يستطيع
أن يصل الى هذا النظام الذى نسميه علما •

ان تحقيق هذا الهدف الأخير لن يتم الا بالتدرج ويتوقف
بطء أو سرعة هذا التقدم على مواقف مختلف الاتجاهات التى يحتاج
الأمر الى تنظيم تعاونها ولن نستطيع التقدم نحو ما هو أساسى الا بقدر

ماتتيحه لنا ذلك الحالة التي بلغتها البحوث السيكولوجية نفسها ومع ذلك نستطيع أن نبدأ من الآن الصراع ضد بعض الاتجاهات المسئولة أساسا عن الفوضى في الموقف الراهن لعلم النفس .

علينا بادئ ذي بدء أن نخلص القرارات الخاصة بالطريقة الحقيقية التي تطرح بها مشكلة السيكولوجيا في الوقت الحالي ، من التعسف الفردي أو الاقليمي . اذ يميل أغلب السيكولوجيين الى التصرف كما لو كان الأمر يتوقف عليهم وحدهم في تقرير ما هو مقبول وما يحتاج الى اعادة النظر في مسألة سيكولوجيا الأُمس دون الاهتمام بالوضع القائم فعلا حاليا .

ولذلك فانه من المناسب تحديد الموقف الراهن لقضية السيكولوجيا وفحص كافة المشاكل التي تثيرها العلاقات القائمة بين مختلف الاتجاهات السيكولوجية الحديثة . ولما كان هناك حتى الآن بعض السيكولوجيين الذين يعتقدون أن الحركة الجديدة قد وضعت كل شيء محل التساؤل ماعدا فرض « الحياة الداخلية » فيجب أن نبدأ بصفة خاصة بتأكيد نقد المذهب القائل « بالحياة الداخلية » في كافة أشكالها .

ويجب في نفس الوقت أن نقوض منذ الآن الاتجاه الذي يقوم على تركيز التفكير في أسس علم النفس حول عدد معين من القضايا والأبحاث هي بعينها لا تتغير كما لو كان من المستحيل زحزحة مركز الثقل في علم النفس . والمشكلة المطروحة بالنسبة لكل القضايا هي احوال القرارات الجماعية محل القرارات الفردية أو الاقليمية ، واحلال المنهج محل التقاليد ، والأفكار النابعة من التعقل محل الأفكار المأثورة ، وفي النهاية خطة عقلية منطقية للعمل الجماعي بدلا من الآراء الفردية أو الاقليمية التي لا تعدو أن تكون محتملة فحسب .

يبدو - على الأقل للوهلة الأولى - ان علم النفس انما يعانى من مزيد من النقد لا من مزيد من الدوجماتيقية . فتاريخه منذ خمسين عاما يبدو أساسا أنه سلسلة من النقد : نقد السيكولوجيا الفلسفية القديمة على يد المدرسة المسماة « بالعلمية » ، ونقد السيكولوجيا « العلمية » على يد أتباع فوننت . ومن ناحية أخرى . نقد سيكولوجية « العناصر » الأولى ، الميكانيكية على يد « سيكولوجيا عناصر » تدعى أنها دينامية (كبرجسون مثلا) . ثم نقد « سيكولوجيا العناصر » عموما على يد الجشطالت . ومن وجهة نظر ثالثة أيضا نقد السيكولوجيا التى لا ترقى الى الدلالات على يد سيكولوجيا الدلالات نفسها (١) ، وعلى الأخص نقد سيكولوجيا الروح . على يد سيكولوجيا الشعور . وأخيرا نقد سيكولوجيا الشعور على يد السيكولوجيا التى لا تعترف بالشعور ولا بالحياة الداخلية عموما (مثل « السلوكية » لدى واطسن) .

ونقد قال « ليبنتز » عن الفلاسفة انهم على حق فى ما يؤكدونه ومخطئون فيما ينفونه . ويبدو أن الأمر على العكس بالنسبة للسيكولوجيين فهم مخطئون فى ما يؤكدونه ومصيبون فقط فى ما ينفونه . والحق أن التخلي عن السيكولوجيا الفلسفية القديمة كان شرطا حيويا بالنسبة للسيكولوجيا العلمية ، والحق كذلك أن

(١) يقصد المؤلف بسيكولوجية الدلالات ما كان يطلق عليه

Geisteswissenschaftliche Psychologie أى السيكولوجيا بوصفها علما للظواهر النفسية (العقل) حاملة المعنى والدلالة « الانسانية » - وذلك فى مقابل ما كان يطلق عليه Naturwissenschaftliche Psychologie أى علم النفس بوصفه علما « طبيعيا » (مثل علوم النبات والحيوان الخ) التى تستبعد من ميدانها المعانى والدلالات الانسانية . (المراجع)

• سيكولوجيا فوندت ليست هي السيكولوجيا العلمية الحقيقية .
 • وحقيقي أيضا أن مذهب الذرات الروحية لم يكن سوى خرافة .
 الا أنه حقيقي كذلك أن دينامية برجسون مثلا ليست سوى خرافة
 أخرى • وصحيح مرة أخرى ان السيكولوجيا التي لا ترقى الى
 الدلالات لاتستطيع أن تبلغ الانسان وبالتالي فهي ليست سيكولوجيا
 حقيقية ، وصحيح كذلك أننا بالدلالات الموضوعية لم نتغلغل كثيرا
 فى سيكولوجية الانسان وصحيح فى النهاية أنه ينبغي استبعاد
 الروح (النفس) من عداد الموضوعات التي يجب أن تبحثها
 سيكولوجيا وضعية ومن الصحيح فوق كل ذلك أن هذا ينطبق على
 الشعور نفسه وعلى الحياة الداخلية بصفة عامة •

فليس انعدام النقد اذا هو مايلفت النظر لدى السيكولوجيين
 فانهم لم يهملوه بل تفوقوا فيه وحققوا فى هذا السبيل تقدما
 ملحوظا • واننا نشاهد اليوم فى الواقع حركة ثانية حول أسس
 السيكولوجيا ، ومن حركة لأخرى نشهد تعميق النقد بشكل حقيقي
 حتى رأينا نقد جوهر المشكلة يأتي فى أعقاب نقد الشكل •

وفى الواقع أن ممثلى الحركة الأولى النابعة من فوندت لم يأخذوا
 على السيكولوجيا القديمة سوى شكلها أى كونها تتحدث عن النفس
 وتمارس الاستبطان علنا • الا انهم لم يفكروا قط فى نقد الجوهر
 أى الخطوات التى أدت - فى السيكولوجيا الفلسفية القديمة - الى
 المقاصد الميتافيزيقية والاستبطانية ، وكذلك مفاهيمها والمادة التى
 تنصب عليها تلك المقاصد : فاذا كانوا قد استبعدوا المذهب القديم
 فى الروح (النفس) فانهم لم يفكروا فى وضع ظواهر النفس التى
 لا تقبل قدما موضع النقد • وبدلا من اقامة سيكولوجيا جديدة
 حقا لم يفعلوا شيئا سوى الاحتفاظ بالقديم فى ثوب جديد • وكذلك
 اذا كان نقدا الارتباطية بدأ بهوفدنج ووليم جيمس ، فان هذا النقد لم
 يتناول الا الشكل ، ولم يبحث مسألة استبعاد هذه السيكولوجيا

التي يتركز موضوع بحثها في الكشف عن طريقة ارتباط الظواهر النفسية ببعضها البعض بل انصب النقد فقط على الشكل الميكانيكي لمفهوم هذه العلاقة . وعندما شرع برجسون مثلا في نقد السيكلوجيا الكلاسيكية بشكل عام ، لم يبحث استبعاد هذا الاتجاه الذي لا يعرف سوى المشاكل الوظيفية وانما استبعد أساسها الميكانيكي فقط ، وكل ما كان يريد في الواقع هو أن يعيد قول التعاليم الكلاسيكية بالألفاظ دينامية . وبالمثل فيما يختص بالمحاولات الموضوعية التي ترمى الى أحداث « ثورة كوبرنيكية » في السيكلوجيا ، تتلخص في الانتقال من الملاحظة الداخلية الى الملاحظة الخارجية ، وهي لا تعنى بالنسبة لبختريف ، مثلا الا أن السيكلوجيا يجب أن تعنى من الآن فصاعدا بمعطيات الملاحظة الخارجية وحدها . فكان بختريف لا يعيب على السيكلوجيا سوى وضع تعاليمها في لغة الاستبطان وكل ما كان يريد هو إعادة صياغة نفس هذه التعاليم ونفس الطريقة في النظر الى الانسان بلغة الفعل المنعكس .

الا أن المطلوب ليس الاكتفاء بنقد الشكل الذي أعطته السيكلوجيا القديمة لتعاليمها ، بل المطلوب هو أن تنقد كذلك الخطوات والأساليب التي أدت اليها .

- ٢ -

وهكذا بعد فترة من الهدنة التي بدا أثناءها لغالبية السيكلوجيين أن السيكلوجيا قد تخطت نهائيا المرحلة قبل العلمية ، وأنها قد انتظمت نهائيا في سلك العلوم ، تثار اليوم من جديد قضية الأسس ، وهذا يعنى أن السيكلوجيين غير راضين عن النتائج . وفي الواقع فانهم يأخذون على السيكلوجيا الكلاسيكية

تجاهلها وحدة الانسان و كليته و أنها اكتفت بالتأليف بين عناصر لا دلالة لها و أنها نظمت تجارب شديدة التجريد لا تتصل الا بالمشاكل الوظيفية من المتعذر بل من المستحيل تكاملها في الحياة الواقعية للانسان . الخ . و يبدو كذلك أن هناك اجماعا حول هذه النقطة ، اذ أصبحت هذه الانتقادات في نهاية الأمر حديثا معادا بينهم .

وقد يبدو أن السيكولوجيا الكلاسيكية وبها كل هذه المثالب قد أصيبت في الصميم ، ولكن الأمر ليس كذلك . فما أن تكلم المثلبون المتقدمون للحركة الجديدة عن ثورة في السيكولوجيا حتى قيل لهم أنه لا توجد أى هوة بين السيكولوجيا الجديدة وتلك التي اعتنقها الجيل السابق ، اذ يقال لهم بأن المطاعن التي توجهه الى سيكولوجيا الأمس يمكن أن تنطبق عليها ، ولكنها في الواقع لا تنطبق لأننا تتعلق بمرحلة تخطيناها من قبل (١) فاذا كان النقاد ينحون باللائمة على التحليل الى عناصر فان فوننت قد بين من قبل أن ناتج التركيب *synthèse* يختلف عن مجموع العناصر المكونة له و يتطلب دراسة مستقلة (٢) ثم اذا كان يؤخذ عليها تجاهلها وحدة الانسان و كليته فليس من العسير اثبات أن هذه المسائل شغلت دائما بال السيكولوجيين في الجيل الماضي ، وأن محاولات مثل محاولات برجسون قد اعتبرتها مركز مشاغلها . واذا وجه اللوم الى السيكولوجيا الكلاسيكية على احمالها وبعية نظر الدلالات فيرد على ذلك بأن السيكولوجيا الكلاسيكية هي نفسها التي أكدت أهمية النظرة البيولوجية طارحة بذلك ضرورة دراسة الوظائف السيكولوجية من وجهة نظر التكيف ، وبالتالي من وجهة نظر غائية محددة واضحة نفسها بذلك داخل مجال الدلالات . وفي النهاية من

Buhler : Die Krise der psychologie, p. 70 ff.

(١)

Wundt Saube : Ein führung in die neuere psych. Oster-
wieck, 1928.

(٢)

يجسر على أن ينكر على التجارب السيكلوجية الشبيرة قيمتها
وحقيقتها ودوامها ؟

وهكذا يثبت « أنصار المهادة » - الذين يستحقون لقب رجال
الاصلاح - في كل يوم ان لم نقل عدة مرات في اليوم أن كل ما هو
حسن في السيكلوجيا الجديدة قد أرادته وتوقعته بل وحققته
السيكلوجيا القديمة ، وماعدا ذلك مبالغه وراديكاليه رخيصة .
فكيف نتحدث اذن عن قطيعة بين سيكلوجيا اليوم وسيكلوجيا
الأمس ؟ واذا لم تكن هذه القطيعة موجودة فان ما نتخذة أساسا
للحركة الجديدة يفقد معناه ، فلماذا اذا نتحدث عن سيكلوجيا
جديدة ؟

وهنا نجد أن القائمين بالنقد الجديد هم أنفسهم الذين مهدوا
الطريق لحجج الذين يبخسون قيمته . ويبدو أيضا أنهم وجهوا
انتقاداتهم بحيث يمكن التغلب عليها فورا . ولما وصلت المسألة الى
تحديد الادانة بدا أن هؤلاء السيكلوجيين يخافون من الدرع المدرسي
للسيكلوجيا القديمة الذي انهالوا عليه نقدا . فالغالبية منهم تشعر
بحرج شديد أمام علم النفس التجريبي فهم يحسون أن به نقصا
رهيبا ولكنهم يخشون - دون أن يتبينوا مصدر خشيتهم - رفض
النتائج التي حققها علم النفس التجريبي خلال سنوات طويلة من
العمل ، تلك النتائج المستخفية في شكل دقة علمية بالغة .

ولجات غالبيتهم الى الحيلة ، فركزوا نقدهم للسيكلوجيا
الكلاسيكية على وجه واحد لها وأكدوا أن المطلوب هو تجديد جزئي .
فعاثوا على السيكلوجيا اهمالها (البناء) Structure وأدخلوا
البناء في حسابهم وبذلك اعتقدوا أنهم صاروا في مأمن من اللوم .
ولكنهم نسوا أنهم لو كانوا قد بدءوا من وجهة نظر البناء لوصلوا الى
كافة المشاكل التي تنطبق عليها اليوم وجهة النظر هذه . وهكذا
أفلت من النقد كل ما هو متضمن في الطريقة التي تصيغ بها

السيكولوجيا الكلاسيكية هذه المشاكل • وسيكون من السهل بعد ذلك على هذه الأخيرة أن تدعى أن الأمر لا يعدو إضافة شيء من الدقة فى التفاصيل لا يستأهل الحديث عنها فى عبارات طنانة •

وكان البعض الآخر أكثر حذرا فبدأ بالمعارضة • وتجنبوا بكل بساطة الحكم على السيكولوجيا الكلاسيكية كما هى وقالوا فقط انها ليست كل ما يجب أن يكون • وخلقوا شكلا جديدا للسيكولوجيا ناتجا عن تطبيق وجهة النظر التى يؤكدون أنها كانت غريبة على السيكولوجيا من قبل • فكيف تعتقد السيكولوجيا القديمة اذا أنها هزمت ؟ على العكس أنها تستطيع أن تعلن فى فخر منجزا أو أكثر من منجزاتها التى عجز النقد عن النيل منه وذلك لأن النقاد يؤثرون التفاضى على الهجوم •

وعلى كل يستطيع « أنصار المهادنة » أن يثبتوا بسهولة أنه لا توجد موانع أو فواصل بين سيكولوجيا الأمس وسيكولوجيا اليوم طالما أن أحدا لم يحدد بوضوح المبدأ الذى يسمح له أن يمارس التسامح الذى يديه فى الواقع تجاه السيكولوجيا « العلمية » وما يلفت النظر فى هذا الأمر اتجاه « سيكولوجى الوسط » اذ لما كانا مرتبطين بالسيكولوجيا الكلاسيكية بحكم تكوينهم المهنى ، وتجذبهم فى نفس الوقت المحاولات الجديدة ، فانهم يرغبون فى الجمع بين ما هو صحيح فى الحركتين •

ان من العجيب حقا فى الأمر انهم يعتقدون أن بوسعهم السير فعلا على هذا الدرب، فهم يقولون مثلا : ان وجهة نظر البناء ضرورية ، ولكن لا يمكن الاستغناء عن دراسة العناصر • ان السلوكية اكتشاف عظيم ولكن دلالة السلوك لا يمكن فهمها الا بالاستبطان • ان السيكولوجيا الشاملة مهمة جدا ولكننا ندين بالكثير الى تجارب السيكولوجيا العلمية ••• الخ •

ومن الواضح انهم هنا يتلاعبون بالألفاظ ، فيقولون مثلا أنه يجب أن نأخذ ما يتفق والوقائع في كل من السلوكية و سايكولوجية الحبرات المعاشه Erlebnispsychologie ولكن أية وقائع ؟ أهى الوقائع السايكولوجية كما تعرفها السلوكية أم كما تعرفها السايكولوجيا الاستبطانية ؟ ولما كانت تعريفات الاثنين متناقضة ، فما أن نقف فى صف واحدة منهما حتى تسقط الأخرى تماما ، ويستحيل الجمع فى نفس الوقت بين « ما يتفق والوقائع » فى الاثنين . وحيث أن الأمر فى البحوث الوضعية لا يجعل من السخف شيئا قاتلا فانا نجدهم يأخذون بالتعريفين معا أو على الأصح يأخذون بواحد منهما مرة وبالأخر مرة أخرى حسب الظروف . وهكذا يعترفون بقيمة ظاهرة من وجهة نظر تستبعدها بعد ذلك وبعهة النظر التى بمقتضاها سيترفون بقيمة ظاهرة أخرى ، وهذا هو ما يسمونه « اعطاء النواحي الايجابية فى كل اتجاه حقها » .

وفى الواقع لا يوجد مبدأ عقلى واحد يمكن أن يسمح بالأسلوب الذى يريد به سايكولوجيو « الوسط » أن يستبقوا للسايكولوجيا الجديدة هذا الوجه أو ذاك من السايكولوجيا الكلاسيكية ، بل يبدو فضلا عن ذلك أنهم يصدررون فى أعمالهم عن الحدس ويحتفظون بما له وقع خاص عليهم . وبالتسبة لهذه النتائج التى قد تكون صحيحة تبرز مرة ثانية وجهة النظر التى أدت اليها ، وهكذا لا تجد السايكولوجيا الكلاسيكية سببا واحدا يجعلها تعتقد بالهزيمة من جانب هذه السايكولوجيا التى تعتمد على نفس مصادرها .

ولا يوجد حتى الآن سوى اتجاه واحد تبنى موقفا نقديا واضحا تماما وقدم صيغة محددة فى ادانته للسايكولوجيا السابقة عليه وفى نفس الوقت محكا واضحا يحكم بمقتضاه على ما يقبله أو يرفضه . هذا الاتجاه هو السلوكية بالمعنى الدقيق للكلمة . فللمرة الأولى لا يتوقف رفض نتائج ما أو نظرية ما على مصادفات التقديرات

الفردية • فقد رفضت كل ما يتضمن بأية طريقة فرض • الحياة
الداخلية ، •

وبهذه الطريقة استبعدت فقط وجهة نظر الواقعية (*) ، فرغم
وضوح المحك فان الدقة تنقصه • ذلك أنه قد تكون هناك - الى جانب
الواقعية - عدد من المسلمات postulates التي يجب نقدها مثل المسلمة
الكلاسيكية القائلة بأن « الظاهرة النفسية يجب أن تكون معطى
حسيا » • ومن هذه الناحية لم يفعل السلوكيون شيئا سوى
المعارضة وحسب لأنصار الحياة الداخلية دون أن يخضعوا المسلمة
نفسيا للنقد • ولما لم يتم أى « تأليف » synthèse فان التضارب
لا يمكن أن يهدأ وظل هناك خط مشترك بين السلوكيين واللاسلكيين
مما جعل السلوكيين يقنعون غالبا بالنقل الحرفى البسيط •

هذا هو حال الفرض الأساسى ، الذى بنفيه لواقعية الحياة
الداخلية ، يميز السلوكية كلها ، الفسيولوجية منها وغير
الفسيولوجية ، بمعنى أنه عن طريق تفسير معين « للمنبه -
الاستجابة » نصل الى تعريف حقيقى للظاهرة النفسية • ومن
الواضح أن هذا ليس إلا مسaire وخضوعا لوجهة النظر البيولوجية •
ولما كانت هذه النظرة غير غريبة على سيكولوجيا الأمس ، فانها لا ترى
فى السلوكية بالمعنى الدقيق للكلمة الا استخداما سيئا لمبدأ طيب ،
وبوسعها أن تطالب بالعودة الى استخدام « سليم » ، أى استخدام
لا يستبعد الحياة الداخلية •

ونستطيع أن نفهم الآن لماذا جعلنا النقاد لا نحس الا قليلا
بأنه لا توجد فى السيكولوجيا أمور محسومة • فهى حيناً ذات نظرة

(*) الواقعية Réalisme يبدو أن المؤلف استخدم هذا المصطلح
فى غير معناه التقليدى ويبدو أنه يقصد واقعية الحياة الداخلية كما يتضح
من السياق فى السطور التالية (المراجع)

أحادية الجانب ، وحينما آخر تعوزها كافة المبادئ الواضحة المتناسكة ، بحيث تقلت بعض جوانب السيكلوجيا التي ينبغي استبعادها ، وبحيث يوجد دائما في الاتجاهات الحديثة ثغرات تسمح لسيكلوجيا الأمس بالتغلغل في سيكلوجيا اليوم . وهذا هو السبب في أننا نجد دائما في كل هذه الاتجاهات الحديثة ، وتحت مختلف الشيا ، النظام القديم لظواهر الروح .

ومن الجائز أن أساليب ومسلّمات السيكلوجيا الكلاسيكية غير مستقلة بعضها عن بعض ، ومن الجائز على وجه الخصوص أن الواقعية التي هي أساس النظام الكلاسيكي لظواهر الروح مرتبطة ارتباطا وثيقا بغيرها من الأساليب التي تقوم الاتجاهات الجديدة على نفيها . وربما كانت واقعية « ظواهر الروح » لا تستقيم مع وجهة نظر الدلالات . الا أنه من السيل اثبات أن السيكلوجيا التي تريد تطبيق وجهة نظر الدلالات مع احتفاظيا بالواقعية ، والتجدد الذي تريد ادخاله ليس تجديدا ولا يتعارض مع السيكلوجيا الكلاسيكية . ونستطيع عندئذ أن نثبت أنه رغم الوثبة فمازلنا في مكاننا .

وبتعبير آخر يجب أن نلتمس العذر لهؤلاء الذين لا يريدون الاعتراف بوجود هوة لا يمكن عبورها بين السيكلوجيا الحديثة وسيكلوجيا الأجيال السابقة . وفي الواقع فان وجود القاعدة الأساسية للسيكلوجيا الكلاسيكية أعنى واقعية ظواهر الروح وكل مايتعلق بها داخل السيكلوجيا الحديثة يسمح نلسيكلوجيا الكلاسيكية بالتعرف على نفسها في الحركة الجديدة ولا يكون من حقنا نظرا لوجود هذه الرابطة الوثيقة أن نتكلم عن هوة بين هذين الضربين من السيكلوجيا .

غير أن « أنصار المهادنة » يخطئون أكثر ما يخطئون عندما يؤكدون أنه ليست هناك صلة منقطعة بين سيكولوجيا الأمس وسيكولوجيا اليوم ، لأنه ليس هناك ما يوجب ذلك ، وأنه لا محل لمعارضة السيكولوجيا التي حظيت زمنا طويلا باحترام التعليم الرسمي بسيكولوجيا أخرى مختلفة عنها تماما .

الا أنه حدث مرتين أن أحسن علماء النفس أن في سيكولوجيا جيلهم شيئا يجب استبعاده وحاولوا « التصفية » مرتين . فحاولوا معارضة مانسميه عموما « بالسيكولوجيا » بواسطة السيكولوجيا الجديدة ، أى التي صفت ما كان ينبغي تصفيته . ولكن هذه التصفية الأولى لم تكن كافية . وهذا هو بالضبط كل دلالة الحركة المعاصرة . فالمدافعون عن الأدلة الكلاسيكية يثبتون دون صعوبة أن السيكولوجيا الجديدة لم تأت بأى تغيير أساسى فى أى مسألة جوهرية . وهم بذلك يقيمون البرهان فى الواقع على أن التصفية الثانية هى كالأولى غير كافية .

ونجد أنفسنا أمام تفسيرين محتملين . فيمكن القول أن الحركة الجديدة لم تنجح فى حفر هوة بين سيكولوجيا الأمس وسيكولوجيا اليوم لأنه لا محل لهذه الهوة من حيث أن الحركة الجديدة لم تفعل شيئا سوى تقديم بعض المطالب التى تستطيع سيكولوجيا الجيل الماضى أن تفى بها تماما . ويمكننا القول على العكس أن عجز السيكولوجيا الجديدة عن حفر هذه الهوة لا يعنى كفاية السيكولوجيا القديمة فى مواجهة المتطلبات الجديدة بل يعنى فى الحقيقة عدم كفاية المحاولات المعاصرة .

ونحن فى صف التفسير الأخير . فان الاحساس بعدم كفاية السيكولوجيا القديمة يكاد يكون عاما . ولا تبدو لنا السيكولوجيا

القديمة مرضية لأن المدافعين عنها نجحوا في اثبات أن أحدا لم يدخل عليها أى تغييرات تذكر . وعلى أى حال فقبل أن نقنع بالمسئلة التى تتضمن أن كل محاولة لاصلاح السيكولوجيا وإقامة سيكولوجيا جديدة فى مواجهة السيكولوجيا الحالية - لن يتاح لها الا أحداث بعض التصويبات الطفيفة لأنه لا يوجد فى سيكولوجيا الأمس ما يقتضى تصفية أساسية - نقول قبل أن نقنع بهذه المسئلة ينبغى قبل ذلك أن نتحقق منها بمحاولة جذرية حقا . ولقد خرجنا من فحوصنا السريع السابق لعمليات النقد السيكولوجى بأن كافة المحاولات كانت جزئية ومفتتة . وهكذا تكون الحججة الكبرى « لأنصار المهادنة » مجرد تحصيل حاصل . ذلك أن هذه الحججة لا تعدو القول بأن الاصلاحات الجزئية هى اصلاحات جزئية .

والنتيجة الحقيقية التى نستخلصها من الوضع الذى سبق شرحه هى أن الحركة النقدية الثازية لم تنجح هى الأخرى فى تصفية ما كان يتعين عليها تصفيته .

- ٤ -

ويمكننا اذن أن نصيغ أزمة السيكولوجيا بالطريقة الآتية :

يحس الجميع منذ حوالى خمسين عاما تقريبا أنه قد آن الأوان لكى ينتقل علم النفس من المرحلة قبل - العلمية الى المرحلة العذرية ، وأنه يوجد فى السيكولوجيا « شىء ما » يحول دون هذا الانتقال ويتعين ازالته . ولكن أحدا لم يستطع أن يبين بدقة الطبيعة الحقيقية لما يجب ازالته ، ويقول لنا كيف يمكن معرفة ما اذا كانت فكرة ما أو نتيجة ما فى السيكولوجيا علمية أم قبل - علمية . فضلا عن ذلك فانه فى كل مرة حدثت محاولة لصياغة تعريفات أساسية

يتكشف لنا بعد أجل قصير جدا أنها قاصرة قصورا . وتبين دائما أن الأساس الذي يجب تصفيته ظل على ماهو عليه ولم نبلغ هدفنا نحو « المر العظيم » (*) وهذا هو السبب في أن السيكولوجيا تعاني من الاسراف في النقد . فما أن بدأت مرحلة النقد لم يكن من الميسور ان تبلغ غايتها منام النقد غير فعال . ولا يمكن تفسير عدم فعالية النقد بسبب نواقص فردية ، بل انها على العكس تكشف لنا أن مسألة أساسية قد نجحت في الافلات من كل فحص .

ويجب أن نلاحظ أن الفكرة الأساسية التي حركت نقاد السيكولوجيا حتى اليوم هي أن ذلك الجزء من الفلسفة الذي حظى بشرف تدريسه رسميا تحت اسم السيكولوجيا أو ميتافيزيقا الروح هو الشكل قبل العلمى للسيكولوجيا الوضعية . فلا بد أن تكون هناك علاقة استمرار بين السيكولوجيا قبل العلمية والسيكولوجيا الوضعية بالرغم من الهوة التي أحدثها اختلاف المناهج واتجاه البحوث والنتائج . ذلك الاستمرار الذى يوجد بين مرحلتين من تطور بعينه . وهذه هي الفكرة الرئيسية لدى فوندت ولدى غالبية النقاد المحدثين . وفيما يتعلق بجؤلاء فإنه من الغريب أن نلاحظ أن هذه الحركة التي ترفع شعارات « البناء » ، « الوحدة » ، و « الكلية » تطبق وجهات النظر هذه على كل شىء سوى اصلاح السيكولوجيا نفسها . والاتجاه السائد فى المحاولات الجديدة يتكون فى الحقيقة من انتزاع مفهوم السيكولوجيا الجديدة من السيكولوجيا القديمة نفسها . فبوضع رقعة هنا وأخرى هناك فى السيكولوجيا الكلاسيكية ، توهموا أنهم ينجزون بذلك اصلاحا جذريا .

الا أن عدم فعالية النقد قد يكشف بالذات عن خطأ هذه المسلمة وأن الاصلاح المطلوب يتضمن تضحية أكبر مما قدر أكثر النقاد تقدما .

(*) : التصود : الانتقال الى سيكولوجيا جديدة حقا . (المراجع)

والواقع أنه من الممكن أن يكون الإصلاح هو قطع كافة الصلات بالسيكولوجيا التي وجدت حتى وقتنا هذا . ومن يدري ؟ إذا ما كان من الممكن أن تقوم سيكولوجيا علمية فمن الجائز أنه لن يكون بينها وبين ما نطلق عليه سيكولوجيا حتى تلك الصلة الموجودة بين الفيزياء الحديثة وفيزياء أرسطو .

ولكى نوضح الموقف الحالي يجب أن نعود الى جذور السيكولوجيا لنرى ما اذا كانت توجد حقاً مجموعة من الظواهر الحقيقية التي تبرر قيام علم جديد ضمن علوم الانسان . غير أنه ينبغي لذلك أن نسقط من حسابنا ذلك المنظور الخاص بصدد الانسان الذي يقدمه لنا البناء المركزي للسيكولوجيا (الحالية) .

واننا نتخذ في الوقت نفسه احتياطا آخر ، فنحن لا نعتقد أننا مضطرون اطلاقا للبحث عن صيغة ثلاثم في نفس الوقت سيكولوجيا الانسان والحيوان ، حتى ولو أدى الأمر الى الوصول الى مفهوم ينطبق على الانسان فقط ويستبعد الحيوان . لأننا اذا بحثنا عن صيغة سيكولوجية يمكن أن تنطبق في نفس الوقت على الانسان والحيوان فيجب أن تكون هناك أرض مشتركة بينهما مما سيدفعنا الى وجهة النظر البيولوجية ، وهي نظرة أسوأ استخداميا في السيكولوجيا الكلاسيكية .

ويمكن أن نقول أيضا أننا نبحث كما بحث الكثيرون غيرنا من قبل المعطيات المباشرة التي يجب أن تنطلق منها السيكولوجيا . ولكن ما تعنيه المعطيات المباشرة لدى الكتاب الذين تشير اليهم يتضمن كل ما سبق من مهام السيكولوجيا وطريقة وضع خططها وتحديد مشاكلها . فما هي تلك المعطيات المباشرة كتلك التي يقول بها برجسون والتي تتضمن القيام بمهام استغرقت ألفين من السنين من العمل الفكري ؟

-ونحن لا نبحث على أى حال عن المعطيات المباشرة ، بل نحن نحاول معرفة ما اذا كانت هناك ظواهر حقيقية تبرر قيام الـسيكولوجيا ، ولا يهمننا ما اذا كانت تعتبر مباشرة أو غير مباشرة . ونحن لا نريد تناول صفاتها « المباشرة » الا بقدر ارتباطها بمهام الـسيكولوجيا .

فاذا ما اتخذنا وجهة النظر هذه ، تبين لنا أنه توجد «الى جانب» ظواهر التنفس والهضم وافراز الغدد ظواهر أخرى مثل الزواج والجزائم وممارسة الحرف والعمل بالمعنى الصناعى للكلمة . الخ ، ويتبين لنا كذلك أنه يوجد بشكل عام الى جانب مخطط الطبيعة مخطط آخر انساني بمعنى الكلمة . وكلمة « الى جانب » ليست دقيقة تماما لاننا انما نحيا أولا وفق المخطط الانساني ويجب أن نقوم بمجبود تجريدى خاص لنخلص الطبيعة فى شكلها النقى الموضوعى من ثيابها الانسانية .

وبنفس الطريقة « فالى جانب » الحياة البيولوجية توجد حياة انسانية بمعنى الكلمة ، وهذه الأخيرة هى ما نقصدها حين نقول ان الحياة صعبة على بعض الناس سهلة على البعض الآخر . وكلمة « الى جانب » هنا غير دقيقة مرة أخرى لأن تجربتنا اليومية المباشرة تقدم لنا الحياة فى مظهرها الانساني . فنحن محاطون بأشخاص وليس بتراكيب فيزيقية كيميائية . ولا أستطيع تصور أصدقائى مثلا لوحات تشريح الا بمجهود تجريدى كبير . هذه الحياة الانسانية تكون دراما (*) (وقد اخترنا هذا اللفظ لوصفها لأنه مناسب ولا نستبقى منه سوى مدلوله بوصفه : مشهدا) .

(*) يقول بوليتزير فى كتابه « نقد أسس علم النفس » ١٩٢٨ (صفحة ٢٣ هامش ١) وصفحة ١١ هامش ١ فى طبعة ١٩٦٧) : يجب ان يكون مفهوما فهما قاطبا أننا نقصد بكلمة دراما ظاهرة ، اننا نجرد هذه الكلمة من رنينها الرومانتيكى ونرجو من القارئ أن يعود على هذا الفهم البسيط للكلمة وان ينس دلالتها « المأسوية » .

فما لا جدال فيه أن خبراتنا اليومية تضعنا أولا وقبل كل شيء موضع الدراما . وما الأحداث التي تحدث لنا الا أحداث درامية . ونحن نلعب هذا « الدور » أو ذاك . . . الخ . وان النظرة التي نرى بها أنفسنا نظرة درامية . فنحن نعلم أننا قمنا بدور أو شاهدنا هذا أو ذاك من التصرفات أو المشاهد ، ونحن نتذكر قيامنا برحلة أو رؤيتنا لأناس يتعاركون في الشارع أو أننا ألقينا خطابا . ومقاصدنا أيضا درامية فنحن نريد الزواج أو الذهاب الى السينما .
ونحن نفكر في ذواتنا بشكل درامي .

واننا نقيم علاقاتنا مع أشباهنا في اطار درامي . فالمقاول يستخدم عاملا ونحن نلعب شوطا من التنس مع أصدقائنا . . الخ . وفهمنا لبعضنا البعض درامي كذلك . فإنا أنا مدعو لتناول الشاي وأنا قد أقبل وقد أرفض . وقد يعرض أحدهم رأيه السياسي فأعارضه بشدة . ولكننا نتناقش ونحيا في المعاني التي تمسنا بشكل أو بآخر ولكننا لا نخرج من اطار الدراما في أي لحظة .

ونحن نعرف بعضنا البعض في اطار درامي . والجانب الدرامي هو وحده الذي يهنا في الحياة اليومية . فكل ما نبحت عن معرفته هو كيف يتصرف فلان في موقف بعينه وما الذي ينبغي عمله حتى يتصرف على نحو معين بدلا من نحو آخر وما الذي يحكيه أحدنا لآخر ؟ ان السيد فلان الشاب ، حسن الطلعة ، الذكي ، الثري قد تزوج فلانة العجوز القبيحة الغبيسة ، الفقيرة . . الخ . هذا هو مانسعى الى فهمه .

- ٦ -

ومع أن الدراما تكون في مواجهة الطبيعة مجالا أصيلا تماما ، فان هذه الأصالة ليست جوهر substance يجب أن

نستحدث له كيانا ميتافيزيقيا لم يسبق وجوده . فالزواج يحدث في المكان كالبهيم والتنفس سواء بسواء وكذلك الجرائم والحماقات والحياة الدرامية بشكل عام . وبالتالي فان الخبرة الدرامية ذاتها لا تتضمن ادراكا فريدا في نوعه sui generis غير الادراك العادي .

ومما لا جدال فيه أنه توجد في الدراما مادة لعلم أصيل مبتكر . فعلم الطبيعة التي تهتم بالانسان انما تدرس في الحقيقة ما يتبقى عندما نجرد الانسان من صفته الدرامية . الا أن ارتباط كافة الأحداث الإنسانية بمعنى الكلمة ، ومراحل حياتنا ، وأهدافنا ، ومجموع الأشياء الخاصة جدا التي تحدث لنا فيما بين الميلاد والموت تكون مجالا محددا تماما من السهل التعرف عليه ولا يختلط بوظائف الأعضاء . وهو قابل للدراسة لأنه لا يوجد سبب واحد يجعلنا نفترض أن هذه الحقيقة تقلت بأعجوبة من كل حتمية . فنحن في حاجة لمعرفة لماذا اقترف هذا الانسان تلك الجريمة في تلك اللحظة ، وما الذي جعل السيد فلان الشاب ، الوسيم ، الذكي ، الثرى يتزوج فلانة العجوز ، القبيحة المنظر ، الغبية ، الفقيرة ولماذا تبدو الأحداث وكأنها تضطهد فلانا بينما يفلت غيره من مآزق أشد صعوبة . الخ . ومن الواضح أيضا أن العلوم المسماة « أخلاقية » (علوم الانسان) كالتاريخ والاجتماع أو الاقتصاد السياسي غير قادرة على الإجابة وحدها عن هذه الأسئلة . فاذا كان التاريخ وعلم الاجتماع علوما درامية ، فانها لا تتناول الا الاطار العام الذي تجرى داخله دراما كل جيل ، والمواضيع العامة التي تكون الأحداث الدرامية أشكالها الخاصة . ولكن الأحداث الدرامية لها دائما « هنا والآن » (*) أشكالها الخاصة التي لا يمكن للتاريخ أو الاجتماع أن يفسرها .

* hic et nunc اصطلاح لاتيني معناه الحربي : هنا والان

ويقصد به الخصائص الكائنية والزمنية وما إليها لوقف بعينة أو أحدث بعينها .

(المراجع)

فالسيد س لم يكن ليتزوج الآنسة ع اذا لم يكن الزواج فى بيئتنا.
نظاما اجتماعيا . الا أن تقرير هذه الحقيقة لا يحدد الدراما فى
نوعيتها الفردية . كذلك يبين لنا الاقتصاد السياسى الظروف
الاقتصادية للجريمة ولماذا يتحتم أن توجد الجرائم فى المجتمعات
البورجوازية ولكنه لا يبين لنا لماذا يرتكب شخص بعينه جريمة
بعينها .

فعلوم الطبيعة لا تدرس الا « الميزانسين » المادى للدراما ،
والعلوم « الأخلاقية » لا تهتم الا بالاطار العام والدوافع الأكثر
عمومية ، فيوجد اذن مكان لعلم بعينه يدرس الدراما فى واقعها
وخصوصيتها المحددة .

ويبدو فضلا عن ذلك أن هذا العلم لن يخترع أو على الأقل
لن يخترع بأكمله ، لأننا نجد تحققا أوليا له فى تاريخ طويل من
التقاليد المعروفة لنا جيدا . وفى الملاحظات التى نستطيع جمعها من
خبراتنا الدرامية ، وفى التواتر الذى نلاحظه فيها يقيم كل منا
لنفسه فى الواقع نوعا من « الحكمة » تختلف درجة عمقها وصحتها
وهى ما نسميها « بالمعرفة العملية بالانسان » (*) .

praktische menschenkenntnis

وهى تتعلق بالدراما فقط على وجه الخصوص . وهذه « الحكمة »
ليست مجرد مجموعة من المعارف خاصة بحقيقة أخرى غير الطبيعة ،
توصلنا إليها بادراك يختلف عن الإدراك العادى ، ولها ميزة النفاذ
الى طبيعة ثانية . انها ليست الا تعميقا معيننا لخبراتنا الدرامية
المباشرة . فالتاجر يضع على سلعته « السعر ٩٥ » والرجل المحرب
يقول « اتبع المرأة تهرب منك واهرب من المرأة تتبعك » هذا الأسلوب
وهذه التقارير ناتجة عن استقراء لا يخرج عن نطاق الدراما فى

* اصطلاح المانى ذائع فى الفرنسية والانجليزية يعده به : القدرة

التلقائية لفهم « نفسية » الناس فى الحياة العملية .

أى لحظة • والأمر كذلك في الأدب والمسرح • فليس الأمر في الرواية ولا في المسرح سردا لأحداث تدور حول عمليات فريدة في نوعها يكون الممثلون فيها شخصيات غير مألوفة في الخبرة الانسانية ، بل على العكس نجدتها تقتطع من الخبرة العامة أجزاء لها دلالة خاصة وتقدم للنظارة أشخاصا تعيش وتضطرب في الحياة •

الا أن هذه التقاليد الدرامية ليست بعد علما ، فالمعرفة العملية بالانسان فيها كل نقائص التجريبية « البدائية » ، فعمليانها غير منظمة وتنقصها الدقة وملئتها بالأحكام المسبقة الأخلاقية والاجتماعية • ويبدو زيادة على ذلك أنها لم تحرز أى تقدم منذ قرون مما دعى الى القول بأن الانسان ظل كما هو أما بالنسبة للأدب والمسرح فقد عاشا على نفس هذه الأسس تقريبا أو اكتفيا بتتبع تطور الانسان كما تحدده الظروف الاجتماعية والاقتصادية مقدمين رؤى لا تحليلات ، أى فنا لا علما •

ويبدو أن المشكلة تتلخص في انتقال تقاليد المعرفة التجريبية بالانسان من مرحلة « التجريبية » (*) empirisme الى مرحلة العلم الوضعي •

وهنا نقابل السيكلوجيا كما جاءت تاريخيا • فهي تدعى أنها حاولت انجاز هذا الانتقال • فالسيكلوجيا كما يؤكد السيكلوجيون هي التي رفعت المعرفة العملية بالانسان
praktische menschenkenntnis

الى مستوى العلم لأنها هي التي نظمت بشكل أعمق خبراتنا اليومية المتعلقة بالانسان ، مثلما نظمت الفيزياء تعميقا منهجيا لخبراتنا اليومية بالطبيعة •

* التصود بالتجريبية هنا المعرفة المباشرة الغفل قبل - العننية

الا أننا دهشنا عندما تبين لنا أن السيكولوجيا تستوحى بالرغم من تأكيداتها مفاهيم مختلفة تماما عن تلك التي جعلتنا نرى ضرورة قيام علم جديد بين علوم الانسان .

فالخبرات التي تحدثنا السيكولوجيا (الكلاسيكية) عنها مختلفة تماما عن الخبرة الدرامية . فخبراتنا الدرامية هي الحياة بالمعنى الانساني للكلمة وشخصياتها رجال يضطربون في الحياة بشكل أو بآخر . وحتى مسرح أحداثها الجزئية يتضمن الانسان في شموله . أما الخبرات التي تقدمها لنا السيكولوجيا فتتكون من عمليات ليس لها شكل أفعالنا اليومية . وهي في الواقع تقول لنا ان « التصورات ترتبط ببعضها البعض » « والميول تستيقظ » « والغرائز تستثار » ، وبدلا من الاحداث الانسانية نجد عمليات يؤكدون لنا أنها مقطعة من واقع فريد هو : **الواقع الروحي** ، فبدلا من الدراما الانسانية نجد دراما أخرى تؤدي أدوارها شخصيات مجهولة لا تشبهنا في شيء : تصورات ، وصور ، وغرائز .

ومن المستحيل أن نتعرف على أنفسنا فيما ترويه السيكولوجيا لأنها ليست معطيات عن حوادث انسانية . « استيقظت مبكرا في الصباح للقيام بنزهة في الغابة ، وقابلت هناك الحارس الريفى الذى قال لى « لقد تغيرت غابة «فنسين» عما كانت عليه منذ ثلاث سنوات ، وعما قريب سيصبح شأنها شأن قلب باريس » . نستطيع جميعا أن نتخيل وأن نتقمص شخصيات هذه الحكاية . ولكن ما تقدمه لنا السيكولوجيا ليس سردا عن أشخاص ولكنه سرد عن أشياء » وجد أحد التصورات نفسه بالامس ملاصقا لتصور آخر وعاد اليوم الى الشعور واصطحب الثانى معه « لا يستطيع أحد أن يتمثل المظهر الذى يحدث هنا فعبارات هذا السرد ليست لها أى دلالة انسانية .

وعلى العكس فإن البناء المنطقي للخطوات التي أدت الى المفاهيم والعلاقات المتضمنة في هذا السرد الأخير يمكن أن تنطبق هي نفسها على أى ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة : الذرات أو الحجارة أو الاخشاب . وهذا هو ما أدركه «هيوم» عندما قال ان قانون الارتباط بالنسبة للظواهر العقلية مثله مثل قانون الجاذبية العام بالنسبة لظواهر الطبيعة .

وهكذا نجد ، بعبارة أخرى ، أن السيكولوجيا قد أقامت بجانب الطبيعة ، طبيعة أخرى موازية لها ، تتكون هي أيضا من ظواهر وعمليات فريدة في نوعها *Sm generis* . ففي مقابل دراسة الواقع الفيزيقي بما هو واقع توجد دراسة الواقع (السيكولوجي) المتفرد بما هو كذلك ، وفي مقابل ظواهر الطبيعة توجد ظواهر الروح ، وفي مقابل فيزيقا الظواهر الطبيعية توجد « فيزيقا » التصورات . وقد بدأت السيكولوجيا الحديثة شأنها شأن الفيزياء الحديثة بالميكانيزم لتتجه بعد ذلك الى الدينامية . وهكذا نجد الى جانب الفيزياء فيزياء أخرى .

وتستبدل هذه الفيزياء الثانية بمجموع البشر الذين يقوم كل منهم بمفرده بدوره في الدراما ، تستبدل بهم عالم العمليات الروحية البفريد ، تماما كما استبدلت الفيزياء العالم البفريد للمادة بمجموع الآلهة والجنيات وآلية الحقول . وبدلا من النسق الذي تتوزع به الدراما على مجموع الشخصيات الفردية والاحداث الدرامية تناولت السيكولوجيا المظاهر الكبرى للطبيعة الروحية : الادراك الحسى ، والذاكرة ، والارادة ، والذكاء ، وكرست نفسها لدراستها كما كرسست الفيزياء نفسها لدراسة المظاهر الكبرى للطبيعة : الحركة ، الحرارة ، الضوء والكهرباء . وبالرغم من اعتراف السيكولوجيا بالشخصية لكل فرد ، فان ذلك لا يغير من تلك الطبيعة الثانية تماما كما لا تغير الاشكال المعينة للاشياء المادية من قوانين الميكانيكا .

فمثل الشخصيات الفردية بالنسبة للطبيعة الروحية مثل الساعة
المصنوعة من الذهب بالنسبة للذهب أو الماسة بالنسبة للماس والمادة
الكيميائية المتفردة بالنسبة لحركة الذرات .

- ٨ -

ومهما كان رأينا فى شرعية التشويه الذى أنزله علم النفس
بالدراما فلا شك أن هذا التشويه يتضمن استخدام التقاليد
الاحيائية animisme واذا كان « فوندت » قد استبعد الروح (من
السيكولوجيا) فان ذلك لم يكن له الا قيمة ضئيلة لأنه لم يستبعد
ظواهر الروح . وهكذا نبعت الظواهرية* phénoménisme باستمرار
من واقعية ظواهر الروح . وهكذا أدت بنا أسس سيكولوجيا
الظواهر ، كما أدت بنا قبل ذلك ميتافيزيقا الروح ، الى التقليد
الاحيائية التى تنتسب اليها كل من الروح والحياة الدخيلة(الروحية)
ولا فائدة هنا على الاطلاق من اثاره مشكلة أصل الاحيائية .
والشئ الوحيد الذى يهمنى هو أن المعتقدات الاحيائية لا علاقة لها
بمعرفة الانسان كما هو فى واقعه الملموس تماما كما أن لا علاقة لها
بالطبيعة . فما تنتمى اليه هذه المعتقدات شئ مختلف تماما . ذلك
أن الوظائف التى يقوم بنا مفهوم الروح هى فى جوهرها وظائف
دينية ، والمشاكل التى تهتم بها هذه المعتقدات هى ما تتعلق بالحياة
فى عمومها والموت والبداية والمصير .

ومن ناحية أخرى فان الخبرة الدرامية التى سبق أن وضحناها
لا تستدعى أى معتقد احيايى ، فضلا عن ذلك فان معرفة الانسان
لا تحتاج اطلاقا معرفة نظام ظواهر الروح . وقد لاحظ
السيكولوجيون أنفسهم ذلك .

✽ لا يقصد بوليتيزير بهذه الكلمة مذهب هوسرل واتباعه وانما يقصد بها
المعنى النفوسى المادى للكلمة أى حدوث الظواهر . (المراجع)

ولكن يوجد ما هو أكثر من ذلك . فان البحوث الخصبة حقا
فى السيكلوجيا الحالية هى بالذات المستقلة عن التقاليد الرئيسية
للسيكلوجيا الكلاسيكية ، مثل علم النفس الصناعى . فالبحث فى
كيف تؤثر الاضائة على العمل لا يتضمن أى فرض خاص بالحياة
الداخلية للعامل . وكذلك تقرير أن اتخاذ الادوات هذا الشكل أو
ذاك يزيد أو يقلل بنسبة معينة من انتاجية العمل .

ومن ناحية أخرى فان (ستاندال) أو (دوستوفسكى) لم يكونا
سيكلوجيين بفضل أبحاثهم فى ظواهر الروح . بل على العكس
يمكننا القول أن الروايات والمسرحيات الرديئة هى التى تتأثر بالذات
بالنظام الذى ذكرناه (ظواهر الروح) . وعلى أى حال فالمرء لا يتخطى
الدلالات الانسانية عند قراءة رواية أو مشاهدة مسرحية . ففهم
الدلالات الانسانية شىء واصطناع الفروض حول العمليات الداخلية
(الروحية) شىء آخر . وشرح المنظر الدرامى بمنظر درامى آخر ،
وشرح الكل عن طريق عمليات العالم الروحى يمثلان أسلوبين فى
المعالجة مختلفين تماما .

وهكذا فبدلا من أن نجد فى السيكلوجيا ببساطة تنظيما
أرقى للمعرفة العملية بالانسان نجد أنفسنا أمام موقفين مختلفين :
أحدهما الموقف الدرامى المتمثل فى المعرفة العملية بالانسان ، وفى
الادب والمسرح والآخر الموقف الاحيائى . الموقف الاول هو وحده
الذى يتعلق بالدراما ، بينما الروح لا الانسان هى مركز الثانى .

وقد التقى هذان التراثان فى لحظة معينة ومن المفيد أن نعرف
لماذا تم هذا اللقاء . من الواضح أن التراث الدرامى لم يكن بحاجة
الى التراث الاحيائى . وخير دليل على ذلك أنه رغم سيطرة التراث
الاحيائى لمدة قرون وضغطه على التراث الدرامى فان هذا الاخير
استطاع أن يحافظ على نفسه بدرجة نسبية من النقاء . وقد ظلت
المعرفة العملية بالانسان ولا زالت دائما خارج نطاق السيكلوجيا

الرسمية وذلك رغم جهود بعض السيكولوجيين الذين اقلقتهم كفاءتها
 فاضطروا الى اقامة الصلات بها حتى تبدو السيكولوجيا الرسمية
 هي التنظيم العلمى للمعرفة العملية بالانسان . أما بالنسبة للرواية
 والمسرح فان البحث عن المظهر العلمى scientisme على قلة جدواه -
 هو الذى ساق فى الآونة الاخيرة رجال الادب نحو السيكولوجيا .
 وعلى العكس فان التراث الاحيائى كان يحتاج دائما الى التراث
 الدرامى . فقد حاولت كافة التقاليد الميتافيزيقية أن تتخطى الشكل
 الاسطورى البحت الذى ظهرت به أولا ، وحاولت أن تفرض نفسها
 كتفسيرات فعلية للواقع . كما أن التراث الاحيائى اضطر لكي يعطى
 نفسه وجها ايجابيا ، أن ينقل معطيات المعرفة العملية بالانسان الى
 ميدانه ويترجمها فى لغة احيائية . وبفضل الرباط بين التراث
 الاحيائى والدين احتل هذا النقل * مركز الصدارة، وهكذا حل التراث
 الاحيائى تماما محل الاهتمام الدرامى . وكان هذا يتفق فى المقام
 الاول مع الاتجاه المسيحى للتفكير الغربى الذى ارتبطت به الفلسفة
 نهائيا . ان الاهتمام بالدراما لا شأن له بمشكلات الخلود والخلاص
 اللذين كانا محط اهتمام الاحيائين .

وفى النهاية فان كل هذا النظام الذى انتهى بالانفصال عن
 الفلسفة تحت اسم السيكولوجيا لم يكن له من عمل الا النقل (الذى
 سبقت الاشارة اليه) على نحو يزداد انتظاما ودقة ولكنه خاضع دائما
 لملاهمات الاحيائية .

وكان من الممكن أن يتمشى انتقال الاهتمام من الدراما الى
 الاحيائية ، مع السيكولوجيا العلمية ، بأن تؤدى الاحيائية فى
 السيكولوجيا دور الفرض الخصب .

فكل الحيل والفروض العلمية رغم ما يبدو من انبساط تشوه
 بوقائع الخبرة المباشرة فان سمتها الاساسية انها تسمح بالحصول على

transposition *

معارف جديدة وتقود العلوم بشكل عام من الشكل الميثولوجي الى الواقع . أما الاحيائية فعلى العكس بدأ أنها تقود السيكلوجيا فى الطريق المضاد .

فهي أولا لم تحمل الى المعرفة العملية بالانسان أى معرفة جديدة ، بل ان الاحيائية نفسها صارت تعيش معيشة طفيلية وذلك عن طريق النقل (المشار اليه آنفا) . ان المعرفة العملية الصحيحة بالانسان أتت دائما عن طريق الخبرة الدرامية . ولا يمثل التراث الاحيائى فى الحقيقة أى معرفة فعلية بالانسان لانها ليست الا نظرية ذات مفهوم واحد ، ختلة كبيرة للتفسير لا تستطيع أن تدلنا كيف يمكن الحصول على معارف جديدة وانما تعرف فقط كيف تعطى شكلا معيناً للمعارف المستقاة من مصادر أخرى .

والواقع أن السيكلوجيا عاشت خلال قرون على نفس أسس المعرفة الوضعية . فبينما أصبحت الأعمال الفكرية لعملية النقل أكثر دقة ظلت المعرفة العملية بالانسان عند نفس النقطة لان المشكلة ظلت هي معرفة كيف يجب انجاز النقل . وهذا هو السبب فى أنه منذ أرسطو حتى فوننت لم نكتشف السيكلوجيا ظاهرة جديدة واحدة . أما بالنسبة لفوننت فما هي الظاهرة الجديدة التى اكتشفها ؟ نحن لا نرى لديه ظاهرة سيكلوجية واحدة لم يرد ذكرها بطريقة أو بأخرى فى التراث اللغوى ، أو معروفة من قبل لفلاسفة العصور الوسطى . أما من يسمونه مصلح السيكلوجيا الحديثة « برجسون » فهل قدم لنا ظاهرة سيكلوجية جديدة تستحق هذا الاسم ؟ على العكس ، من السهل أن نرى - اذا ما استبعدنا مسائل النقل - أنه سار على نفس أسس المعرفة التى سار عليها سابقوه . ان هذه الصفة الطفيلية التى لا تحمل على البحث *antiheuristique* للنقل هي التى أضاعت على فوننت وغيره من المؤلفين فرصة الانتقال من السيكلوجيا قبل - العلمية الى السيكلوجيا العلمية . ذلك أنهم أرادوا اضعاف الشكل العلمى على اطارات وصيغ النقل دون أن يشغلوا

بالهم بأن المعارف الفعلية التي نجدها في أساس النقل لا زالت قبل علمية لأنها ببساطة جمعت بواسطة العمليات البدائية للمعرفة العملية بالانسان . وهذا هو مثلا حال كل النظريات «العلمية» عن الحلم التي تحاول الوصول الى تفسير فيزيقي كيميائي للحلم بوصفه عاطلا عن المعنى بينما أثبتت الاساليب التقليدية للمعرفة العملية بالانسان بعد صقلها صقلا بسيطا ؛ أثبتت أن للحلم معنى .

وهذا ليس كل ما في الامر فكما سبق لنا القول يتضمن النقل الاحيائي أن تستبدل بالدراما عالم الروح وظواهرها أي نستبدل بها طبيعة ثانية ، وان هدف النقل هو التعبير عن الدراما بعبارات الطبيعة الثانية هذه . الا أنه لا يوجد أي تشابه بين المستوى الانساني والعالم الروحي . لذلك وجب اختراع اجراءات تسمح بالذهاب والاياب بين الاثنين وتحويل الدراما الى طبيعة (ثانية) .

وجب اذن تحويل الاحداث الدرامية الى عمليات روحية . ولما كان كل قطاع درامي يتضمن بالإضافة الى مشيدته « (الميزانسين) » المادية دلالة تعطيه قيمته الدرامية ، فقد انصب اهتمام السيكلوجيا على هذه الدلالات الدرامية لتحويلها الى عمليات روحية .

فهناك مجموعة كاملة من النظريات الاساسية في السيكلوجيا الكلاسيكية لا هدف لها الا العمل على تحول الدلالات الى عمليات . وهذه هي مثلا حالة قضية التوازي بين اللغة والفكر . فهي تسمح بتحويل قواعد اللغة - قبلها a-priori - الى سيكلوجيا والامر بالمثل في « النزعة السيكلوجية » psychologie فالسيكلوجيا ليست في الواقع الا ارتدادا الى المنطق من حيث أن السيكلوجيين أقاموا سيكلوجيا الفكر بأن نقلوا ، قبلها ، المنطق الى عمليات روحية ، وسعوا لاضفاء الشرعية على هذه العملية باعتبارهم اياها نوعا من البديهيات axiome . ووقع المناطقة من أنصار « النزعة السيكلوجية » ببساطة ضحايا لزيغ السيكلوجيين ان الذين

* النزعة السيكلوجية هي الميل الى تفسير كل شيء تفسيراً نفسياً .

لم يقرروا أن المنطق انما هو سيكولوجيا الفكر ، الا ليستطيعوا أن يبحثوا عن سيكولوجيا الفكر فى المنطق .

وواقعية (الحياة الروحية) تعنى بدورها خطوة أخرى ، فالدلالة متى فطن اليها اعتبرت كغيرها من الوقائع ، أى أصبحت « شيئا » . وبذلك تنتزع من نظام العلاقات الدرامية وتوضع تحت سلطان العلاقات الظاهرية *phénoménale* كتلك التى تستخدم فى علوم الطبيعة .

وهكذا تغير الدراما شخصياتها فبعد أن كان الممثل الوحيد الممكن للخبرات الدرامية هو الفرد المفرد فان خطوات الواقعية (الروحية) تحول كل منتجات هذه الخطوات الى « ممثلين » . وهكذا بدلا من الحصول على المجموع الدرامى ، نحصل على مجموع آخر لا تستطيع سوى اللغة المقتبسة من الطبيعة الاولى أن تعطى لموضوعه معنى . فلم نعد نبحت مسألة انسان قتل انسانا آخر وانما نبحت أثر تصور معين على تصور آخر ، العلاقات الميكانيكية ، والدينامية . والحوية . والاقتصادية . . . الخ القائمة بين الظواهر النفسية ، وتسلسلها واندماجها : أى نستبدل بتاريخ الاشخاص تاريخ الاشياء .

وبتعبير آخر فان الواقعية الروحية مضطرة الى الغاء الدراما بتحطيم المجموعات الدرامية ، وبتقديم الوقائعات فى حد ذاتها ومن أجل ذاتها . وهذه الخطوة الاخيرة هى ما نطلق عليه التجريد . فنحن نقول ان السيكولوجيا التى تستبدل بتاريخ الاشخاص تاريخ الاشياء ، والتى تلغى الانسان وتقيم مكانه العمليات ، والتى تهجر المجموع الدرامى للأفراد الى المجموع اللاشخصى للظواهر هى سيكولوجيا مجردة (تتصف بالتجريد) .

والتجريد المتضمن فى الواقعية الروحية يتضمن بدوره

«الشكلية» formalisme . فبينما ترجع الخبرة الدرامية كل شيء الى المستوى الانساني والى الفرد الذى يمارس الحياة ، فان الدراسة الواقعية الروحية والمجردة لاتستطيع الا دراسة «الظواهر النفسية» . وهى تدرس الظواهر النفسية كما تدرس الظواهر عامة : بطريق التصنيف الى فئات ، من حيث أنه لا يوجد علم الا بالعام . فعوضا عن الاعتبار الدرامى للافراد نجد السيكلوجيا بوصفها علم مفهومات الفئات .

ولقد ركزت السيكلوجيا الكلاسيكية منذ فوننت حتى برجسون كل انتباهها على الفئات الكبرى للظواهر النفسية : الادراك الحسى ، الصور ، الانفعالات . . . الخ .

أما فى مواجهة الحدث الدرامى فلم يكن لدى السيكلوجيين سوى اهتمامات شكلية : ما هو دور الصور فى الحلم ؟ ودور الاحساسات ؟ والعواطف . هذه هى المشكلة النموذجية فى السيكلوجيا الكلاسيكية . فهى تلغى الدلالة الخاصة للظاهرة التى تنشغل بها ولا تحتفظ الا بالشكل : وهذا هو ما نسميه بالشكلية . فنحن نعتبر أن كل سيكلوجيا يسير بحثها وفق مفهومات الفئات التقليدية ، والتى تطرح مشكلاتها بواسطة هذه المفهومات ، سيكلوجيا شكلية .

وبواسطة الواقعية الروحية والتجريد والشكلية حدث النقل من الدراما الى العمليات الروحية . وهذا هو السبب فى أنه من الصعب اقامة سيكلوجيا جديدة حقا على أساس نفي خطوة كالتحليل الى عناصر . إذ أن هذا التحليل لا يتناول الاسس نفسها انما يتناول النتائج .

والواضح الآن أن هذا النقل لا يمثل بأى حال من الأحوال توفيراً ميتافيزيقياً فنحن بالتأكيد لا نتحول من ترف ميتافيزيقى الى اقتصاد ميتافيزيقى باستخدام النقل السابق الذكر .

فنتيجة هذا النقل كله هي إعادة ربط الخبرة الدرامية بتقاليد لا شك أنها ميتافيزيقية . وهكذا تجد دراسة الانسان نفسها وقد تعقدت من جراء المشاكل التى تدور حول الروح . الا انه فى وسعنا أن نكون فى غنى عن ذلك . فبا هي الدراما فلم - بغية دراستنا ليا - نفتتها الى آلاف القطع ثم نبني بعد ذلك فسيفساء *mosaique* (موزايك) مختلفا ؟ ما معنى بعد أن أتبين اننى أكتب بشكل أفضل على الورق الابيض بالقياس الى الاصفر ، أن أقول أن خطى أحسن بالقلم الثقيل عنه بالقلم الخفيف ، وأن بى هذا أو ذاك من الخبرات الداخلية حيث السهولة والصعوبة معايشة على نحو مخالف لأى معاش آخر ؟ ما الذى يستفيده من يريد أن يعرف طريقتى فى العمل من « أن يحيا مرة أخرى فى تعاطف » هذه السهولات أو الصعوبات الافضل أن نهتم بالعمليات التى تسمح لنا أن نتخطى هذه العموميات فى موضوع العمل . فالنقل يقودنا مما هو ميتافيزيقى على نحو طفيف الى ما هو ميتافيزيقى على نحو أعظم دون فائدة .

والأمر الجوهرى ان هذه المنجزات لا تصح فى الاذهان . فالحقائق الوحيدة هى الطبيعة الفيزيقية من ناحية ، والدراما من ناحية أخرى . وبين هذين الاثنين تريد منجزات السيكلوجيا أن تندس الا انه لا يوجد بينهما مكان لدراما ليست دراما لانها تريد أن تكون طبيعة ، ولا يوجد مكان لطبيعة ليست طبيعة لانها تريد أن تكون دراما .

فالنقل لا يقودنا من ميتافيزيقا طفيفة الى ميتافيزيقا مستفحلة

الا لأنه يريدنا أن ننتقل من الحقيقي الى (الاسطوري) فهو يقودنا في الحقيقة الى تصور للدراما يلغى الواقع .

- ١٠ -

ونصل في النهاية الى شكلين من السيكولوجيا . الا ان التعارض بين هذين الشكلين ليس تعارضا بين شكلين يحتملان الصدق ، بل بين شكلين أحدهما صادق والآخر ليس به شيء من الصدق .

والأول هو الدراسة المباشرة للدراما والثاني هو الدراسة غير المباشرة . الأول يدرس الدراما ذاتها عن طريق العمليات العادية للمعرفة العملية بالانسان ، والآخر يدرس «نقلا» للدراما عن طريق عمليات هي - وفقا للهدف الأول الذي يحركها - ملائمة لدراسة نتائج هذا النقل . وفي ثناياها تندس بالصدفة عمليات دراسة الدراما ذاتها .

وهذان الشكلان من السيكولوجيا ينصبان على نفس الخبرة . لأنه لا يمكن أن توجد خبرتان تستطيع كل منهما أن تولد شكلا صحيحا من السيكولوجيا . فلا توجد سوى خبرة واحدة تبرر وجود هذا العلم . لا توجد سوى خبرة سيكولوجية واحدة ألا وهي الدراما .

والطريقة الأولى في الدراسة ناتجة عن دوافع احيائية ، وهي دوافع ميتافيزيقية وليست عملية . فبدلا من الدراما نجد نقلا لها في رموز احيائية بواسطة مجموعة من الشخوص المجردة والشكلية . وبينما الدراما أقرب لنا بكثير من كل هذه الرمزية للظواهر السيكولوجية ، لأننا نجدها (الدراما) في خبرتنا اليومية ، فان هذا الشكل الأول للسيكولوجيا يحولنا بلا فائدة الى نظام من العمليات والمسلمات والمفاهيم لا تؤدي بدراسة الدراما الى أي تقدم ويفرق البحوث السيكولوجية في عمق البحث التصوري الخالص .

ذلك أن الرمزية العلمية لا تحركها دوافع غريبة على العلم ،
وعلى عكس النقل فانها تضبط وتنظم الابحاث بأن تجعلها أكثر
مطابقة لموضوع البحث .

فالسايكولوجيا العلمية لا يمكن الا أن ترجع الى الخبرة
السيكولوجية الحقيقية وهي الدراما ، وتهجر الخطوات التي بها يتم
النقل .

وعلى العكس فان كل سيكولوجيا تلجأ الى النقل بطريقة أو
بأخرى والتي تستخدم عن وعى أو عن غير وعى ، عن فطنة أو بدونها ،
اراديا أو لا اراديا ، الخطوات التي سبق أن عددناها ، هي سيكولوجيا
اسطورية بقدر ما تستخدم من تلك الخطوات . وهذا هو السبب في
أننا نقول ان السيكولوجيا منذ خمسة وعشرين عاما هي أسطورية
تماما ، وأن كافة الاتجاهات الجديدة أسطورية جزئيا .

على أننا لم نحصل بما قدمنا الا على معارضة اجمالية (بين
السيكولوجية العلمية حقا والسيكولوجيا الاسطورية) . ونحن
نعرف الآن مم يتكون الاساس الاسطوري للسيكولوجيا . ولكن
تنشأ هنا مشكلة جديدة معقدة .

فلا يكفي لأي نظام* لكي يصبح علما أن نزيل الاسس
الاسطورية التي يحتويها . فداخل هذا النظام الذي لم يصبح وضعيا
تماما لا يأتي كل الخلل من الاساس الاسطوري اذ توجد مفهومات
وأشياء مقررة ونظريات ليست مجافية للعلم ولكن قبل علمية فقط .
فبعد أن اشرنا بطريقة عامة الى ما لا يمكن أن يكون علما في مادة
السيكولوجيا ويجب رفضه قطعا بوصفه اسطوريا يجب أن نعرف
الآن بأى علامة يمكن معرفة ما يجب الاحتفاظ به ، على أن يتم تحديده
وتعميقه ومعنى هذا التحديد والتعميق في الوقت نفسه . وبعبارة
أخرى بعد أن وضعنا علم النفس العلمي في مقابل علم النفس

الاسطوري ، يجب أن توجد قاعدة تسمح بمقابلته أيضا بعلم النفس قبل العلمي . وهذه المقابلة المزدوجة هي وحدها التي تسمح للنقد باطلاق حكم واضح على سيكولوجيا الماضي .

- ١١ -

من الواضح أن المشكلة التي نواجهها الآن هي (الدقة) في موضوع السيكولوجيا . ومن الواضح أيضا أنه كما هو الحال فيما يتعلق بما يجب تصنيفه فإن الاتجاهين النقديين (اللذين سبقت الإشارة إليهما) لم يأتيا بأى وضوح في هذه المشكلة . وكل الفرق بينهما من هذه الناحية أن ممثلي الاتجاه الاول كانوا يريدون ادخال الضبط العلمي المثالي لعلوم الطبيعة الى السيكولوجيا دون أى تبصر، أما الاتجاه الثاني فكان يريد أن يرد الاعتبار « لخصوصية » الظاهرة النفسية . ولكن لما كانوا يفسرون هذه الخصوصية بطريقة واقعية (روحية) فلم فصل الى تحرير السيكولوجيا من المثل الأعلى الاول للدقة ، الذي لم يدخل الى السيكولوجيا الا من جراء الواقعية . ونشأت حول هذه النقطة أيضا صعوبات أدت الى استمرار المناقشات حولها ، فكان البعض يعتقد أن الطريقة المضبوطة الوحيدة هي تطبيق القوانين الرياضية واستخدام الاجهزة التجريبية ، بينما كان البعض الآخر يعتقد أن هذا مستحيل بالنظر الى خصوصية الظاهرة السيكولوجية . فمن ناحية يوجد اتهام « بالمظهر العلمي scientisme » ومن ناحية أخرى اتهام بالنزعة الادبية . وهذه هي النتيجة الصحيحة الوحيدة التي وصلت اليها تلك المناقشة .

والصعوبة في هذا الصدد هي أن ما أرادوا ادخاله في السيكولوجيا ليس الدقة على وجه العموم وإنما دقة من نوع خاص . فالواقع أنهم لم يبحثوا عن صياغة شروط هذه الدقة بحيث يكون

تعريفها مستقلا عن أى مضمون ، بل كان هدفهم الدقة أو الضبط
التي تحتوى مسبقا مضمونا معيناً من حيث العدد والحجم . وهكذا
نسوا أن الضبط الرياضى أو التجريب الرياضى ليس، الا شكلا من
أشكال الدقة التي تجعل من النظام بشكل عام علما وضعياً . لقد
نسوا ذلك لان تحديد صيغة تلك الدقة (الضبط) بشكل عام لتتفق
مع السيكلوجيا يتضمن تجسيدا جذريا على حين أن صيغة الدقة
العليا كانت جاهزة من قبل فى علوم الطبيعة . ولقد حاول مصلحو
السيكلوجيا أكثر من مرة تطبيق قاعدة الجهد الاقل .

وعلى أى حال فانه لا يجب الخلط بين هذه الدقة (الضبط)
التي تميز العلوم الوضعية عموما وبين الجهاز الرياضى . فنحن
نسمى الفيزياء علما مضبوطا رغم أنها ليست بالدقة أو العقلانية
الكاملة ولا نحن نضفى عليها هذه التسمية لمجرد أنها تتضمن صيغا
رياضية . ويمكننا أن نذهب أبعد من ذلك فنقول ان لكل علم وضعى
ضبطه الخاص به . فالفسولوجيا لها ضبط خاص بها ، ولا يقتصر
ذلك على استخدام الرياضيات وانما بسبب اختزالها المنظم للوقائع
الفسولوجية الى ظواهر فيزيائية - كيميائية . بل نستطيع القول
كذلك أن العلوم الوصفية البحت تتضمن نوعا من الضبط . ومن
الواضح هنا أن السمة المميزة العامة للضبط تكمن فى شئ آخر غير
استخدام الجهاز الرياضى أو التجريبى . فقد يستطيع نظام استخدام
الجهاز الرياضى التجريبى - ولا يتخطى مع ذلك المستوى الاسطوري .
فالكثير من التجارب السيكلوجية وغالبية التطبيقات الرياضية
المستخدمة فى السيكلوجيا تثبت ذلك .

وكما أن التمييز الاساسى بين الميثولوجيا والعلم ، هو أن العلم
يبحث عن معرفة الوقائع فى مستوى الوقائع نفسها ، فان الضبط
يتحدد بمدى مطابقة المعرفة للوقائع المدروسة . كل ما هنالك أن هذا
التطابق ليس ميتافيزيقيا ولكنه تجريبى أى أنه تطابق مع نوع الدقة
الملائمة للموضوع .

وهكذا نرى أن تأكيدات مثل : كل شيء يتحرك ، أو الطبيعة عود لا نهائي ، أو الطبيعة مسرح لصراع دائم بين قوى متضادة . . هذه التأكيدات غير مطابقة لنوع الدقة الملائم لموضوعها . ومثلها في ذلك مثل تلك الفكرة الشائعة : ان القانون الشامل للحياة الاقتصادية هو الأنانية الانسانية . فهي ليست خاطئة خطأ مطلقا ، ولكنها لا تصل الى أشكال الحياة الاقتصادية في دقتها المعينة : فهي ليست تقريرا تنبع عباراته من هذه الاشكال نفسها . وفي الحقيقة فان الحياة الاقتصادية لا تبين لنا الانسان على وجه العموم ، انما تبين لنا الطبقات ، وهي لا تبين لنا الانانية بشكل عام وانما مصالح طبقات . وعندما يصل الامر الى أنانية الطبقة فهي لا تبينها في شكل عاطفة سيكولوجية ولكن في شكل بنوك واحتكارات ودول . فالتوكيد السابق لا يصبح قانونا اقتصاديا الا اذا أصبح يطابق الاشكال الدقيقة الخاصة بالوقائع التي يتناولها . وبعبارة أخرى فان أي نظام يكون علما وضعيا حالما يطابق محتواه نفس الاشكال التي تتحدد فيها الموضوعات التي يبحثها . والانتقال من المرحلة قبل العلمية الى المرحلة العلمية ، يتلخص بحق في الانتقال من عدم التطابق الى هذا التطابق الذي تكلمنا عنه . والتطور نحو الشكل الرياضي لا ينتمى الى هذا الانتقال ، بل هو لا حق له على الاقل من الناحية المنطقية .

- ١٢ -

من السهل أن نتبين أن للدراما خاصيتين أساسيتين : أن أحداثها فريدة متعينة « في الزمان والمكان » ، وأنه لا يمكن فهمها الا بالرجوع الى الافراد المعينين كل في وحدته الفريدة . فالزواج يحدث في مكان معين ولحظة معينة بين فردين معينين . وكذلك الجريمة أو الرحلة . والظاهرة السيكولوجية بشكل عام هي دائما

مقطع من حياة الفرد المعين • وأى وسيلة أخرى للنظر إليها تدمر واقعيتها •

فإذا جردنا الزواج من خصائصه «الها هنا والآن» hic et nunc فاننا نخرج من السيكولوجيا الى القانون أو التاريخ أو الاجتماع • ولكي نفهم الزواج من حيث كونه ظاهرة سيكولوجية فقط فيجب اعتبار الافراد من حيث تفردهم أو تميزهم • فالملكات العقلية والأفكار والعمليات لا تتزوج ، وما أن نستبدل الأفراد بمخلوقات من هذا النوع فان حقيقة الظاهرة الدرامية تختفى فورا •

ولكي يمكن اعتبار حقيقة ما متعلقة بالسيكولوجيا فيجب ان يكون لها علاقة بالدراما • يجب أن تعبر عن شيء ما لشخص ما • وهكذا نجد مثلا أن قوانين ارتباط الأفكار ليست حقائق سيكولوجية فاذا كانت حقيقية فهي تنتمي لنظام آخر لم يخترع بعد ، لان موضوعات الاحكام التي تعبر عنها ليست أفرادا من الناس بل انكارا ، والأفعال التي تبحثها ليست مما يقوم به الأفراد بل الأفكار •

ولكي يعتبر أحد تقارير السيكولوجيا معرفة سيكولوجية يجب أن يكون تعبيرا كاملا عن الظواهر الدرامية في تميزها الفريد • فالتأكيد الذي بموجبه تكون الاحلام ناتجة عن انصراف عن الواقع لايمكن اعتباره معرفة سيكولوجية لأنه لايعبر تعبيرا كاملا عن الظاهرة الدرامية في تفرداها • فلكل حلم في الواقع محتوى خاص • ولكن القضية المذكورة لاتمدنا بأي وسيلة للاحاطة بهذا المحتوى • بل هي تسمح فقط بتقرير نفس الشيء عن كل الاحلام تقريراً قريبا بحت • وهذا القول يصدق على كل المقررات والنظريات السيكولوجية التي تتضمن الشكلية (formalisme) فالشكلية تبدأ باستبعاد الحتمية الفردية بالذات من الظواهر الدرامية • فهي تستبعد المحتوى الخاص

للحلم اذا تناولت الاحلام ومحتوى الفكر اذا تناولت الافكار والخصائص الهاهنا والآنية hic et nunc للأفعال ومغزاها الندرامى اذا تعلق الأمر بالأفعال . ومن الطبيعي أن تكون كافة التوكيدات الصادرة عن الشكلية غير قادرة على الافصاح عن الدراما بالدقة الخاصة بالدراما .

أما « الكليات » totalités التى يركز عليها السيكلوجيون فيصدق عليها ما ذكرنا : يصدق أولا على الكلية الوظيفية التى اخترعها بعض السيكلوجيين « كبرجسون » ل يبدو أنه ادخل اصلاحا على تلك السيكلوجيا ، اصلاح يقنع بالتعدد البسيط للوظائف . ويؤكدون ان تعدد الوظائف لم يستعمل الا لحاجة التحليل اليه ، اما فى الحقيقة فالفرد « كلى » . الا أن هذه العبارة الاخيرة لا تعدو أن تكون براعة لفظية اذ تظل المشاكل الوظيفية فى الواقع لب الظاهرة أما « الكلية » فتبقى شكلية . ذلك لأن الانسان شئ آخر غير التشابك مهما بلغ الغاية فى التعقيد ، وغير الانصهار - مهما كان كليا - بين الوظائف العقلية .

وذهب بعض السيكلوجيين ابعد من ذلك ، فاتجهوا الى ادراك « كلية » مطلقة ليست هى المجموع ولا التركيب synthèse ولا الاندماج ولا تشابك الوظائف العقلية وإنما هى ذاتها بناء مستقل وقانون شامل ، وجوهر الانسان اذا صح استخدام كلمة جوهر . ولكن طرح المشكلة على هذا النحو طرح غير سليم ، فليس المقصود ان ندرس - الى جانب الدراسة الواقعية والمجردة والشكلية للانسان - ما يأخذ فى الاعتبار أيضا « وحدته » وإنما ينبغى أن ندرس الانسان على نحو يستهدف وجود « الكلية » فى كافة أنحاء الدراسة . وليس المقصود مثلا أن نستوفى كل ما يمكن للسيكلوجيا الكلاسيكية أن تزودنا به عن الوظائف العقلية ثم نؤكد بعد ذلك وجود البناء الكلى وإنما ينبغى أن نبدأ بصياغة أصغر ظاهرة على نحو

يجعل فهمها لا يصح في الأذهان دون الكلية الفردية . وبعسارة
أخرى فان كلية الفرد لا يجب أن تكون هي النهاية والتتويج لنبحث
ولكن الفرض الأول فيه . ولا جدوى من محاولة جعل الكلية قضية
خاصة .

ويجب فضلا عن ذلك أن نشير توا الى ان كل وجه من أوجه
الدراما تقابله انواع مختلفة من الدقة .

وموضوع السيكولوجيا الصحيح هو مجموع الأحداث الفريدة
التي تأخذ مجراها ما بين بدء الحياة والموت . ولكن هذه الأحداث
نوعان ، بعضها حر وبعضها الآخر موحد في قالب مفروض * الأولى
تظهر خلال مجرى الحياة الفردية في متابعة هذه الأهداف أو تلك
والثانية يجب على الفرد بلوغها وتمثل الضروريات الفيزيائية أو
الاجتماعية او الاقتصادية . الأولى تتضمن حياة الفرد كما هي ،
والأخرى تتضمن وضع الفرد داخل نظام ومقتضيات محددة . بهذا
فان شابا جميلا وغنيا وذكيا قد يتزوج او لا يتزوج من فتاة قبيحة
وفقيرة وغبية وهذا الحدث قد يقع او لا يقع في حياة الفرد . فهو
حدث غير موحد القالب .

وعلى العكس نجد أن العمل يمثل بالنسبة لأغلبية البشر
ضرورة محتمة . الا أن شكل العمل لا يكون - مثل التثبيت الشهوى -
متروكا للمسار الحر للحتمية الفردية ، اذ يجب تقديم عمل معين
بالذات يحصل الفرد في مقابله على عائد . والفرد اما ان ينخرط
في هذه الحتمية واما سيفنى . وليس المهم هنا ما يكون عليه الفرد
بعامة ولكن وجود قدرات خاصة لديه وحصوله على عائد معين .

فعلى حين أن الأحداث الحرة تفترض الفرد في تفرد المعين
ولا تفهم الا بواسطته ، فانه بالنسبة للأحداث الموحدة القالب

standardisés *

لا يكون الفرد إلا قطعة للتعامل ، أو مجرد واسطة أو على وجه الدقة
أداة •

وهكذا تنقسم السيكولوجيا الى قسمين كبيرين : فمن ناحية
علم النفس الفردي ومن ناحية أخرى علم النفس العام . الا ان الاثنين
يجب أن ينطلقا من نفس المنبع وهو الاحداث الدرامية التي تكون
موضوعهما وتتسق مع نوع الضبط الملانم لكل منهما •

وأهم نتيجة تترتب على ذلك هي أن خطة العمل لعلم نفس عام
يدعى أنه علم يجب ان تنبثق لا من تصور مسبق لهذا او ذاك من
ملكات أو وظائف النفس ، ولكن من تحليل الاحداث الموحدة القالب
للدراما كما هي فى الواقع • وبدلا من البدء بتعديد وتعريف مجموعة
من المفاهيم التقليدية ، يجب على العكس البدء من تحليل الوقائع
الدرامية ذاتها : مثلا للعمل كما هو فى المصانع ، واينما يوجد ناس
يقومون بأعمال محددة وللحرف كما تمارس ... الخ

وعلم النفس العام الشائع يعمل بطريقة مختلفة تماما • فهو
يبدأ بإشارة سريعة جدا الى أنه فى الحياة النفسية يتضح لنا عمل
مجموعة من الوظائف ، ويقدم لنا من جديد بعد ذلك مع تغير طفيف
أو كبير أهم ما فى القائمة الكلاسيكية لملكات النفس • وهذه القائمة
كما يقولون ناتجة عن التحليل ولكن تحليل ماذا ؟ انه ليس بالتأكيد
تحليل الدراما كما حدثت فعلا وانما تصور غامض جدا للحياة
النفسية مدرك بالطبع بطريقة تسمح للتحليل أن يستخلص منها
بعد ذلك الوظائف التقليدية ولم نر كتابا واحدا فى علم النفس
العام يبدأ بتحليل دقيق للأحداث الموحدة القالب للدراما أو بالتحليل
الدقيق لمختلف الأوجه والعوامل وظروف العمل والحرفة ... الخ •
واليكم أول سنة قبل عملية : إن علم النفس العام الشائع
يبنى خطة عمله لا على تحليل الوقائع الفعلية المعطاة له ولكن عن

ايمان بتقاليد لم يأخذ على عاتقه التحقق من صدقها بشكل
منظم .

فعلم النفس العام الشائع لا يبدأ من الوقائع ليصل الى المفاهيم
والنظريات بل العكس فلا يبدأ السيكولوجيون من وقائع الدراما الى
حيث يجب أن يقودهم التحليل ، بل يبدأون من المفاهيم والتعريفات .
وهكذا نجد أنفسنا « تائهين في البحر » لا ندرى أين نذهب وليست
لدينا أى فكرة عن مدى اتساع ودقة الوقائع التى يجب أن نطبق
عليها النظرية . فندرس مثلا الارادة ولكن نجد أنفسنا نأخذ بلا تبصر
أى شيء وفق الفكرة التى تكون فى رأسنا عندئذ : الفرد ، المجتمع ،
تداعى الأفكار ، الوراثة ، الغدد ذات الافراز الداخلى . وتبدو
الارادة شيئا مطاذا جدا ، توافق كافة النظريات ، اذ لما كنا قد
بدأنا بأن نراها كل مرة بحثا عن النظرية فلا يمكننا بالتالى استبعاد
أى نظرية . وبما أننا أخذنا فكرة الارادة بلا أى تحديد فليس ثمة
ما يمنع ادراكها بحثا عن النظرية فحسب . وبالتالى يصبح عدد
الابحاث والنظريات لانهائيا : ولن نعرف أبدا أين نحن بالضبط .
وسوف نرجى الحساب دائما ، - يحدونا الايمان الصادق - ائى
ما سوف يأتى به المستقبل من الاستكمال .

واليكم السمة الثانية قبل العلمية : ان ابحاث علم النفس العام
العادية ابحاث تتخبط على غير هدى فليس لديها أى فكرة عن الخطة
التى يجب ان تتبعها ، أو عن العلامة التى ستعرف بها مدى تقديم
الابحاث أو بلوغها هدفها منها .

فالانطلاق من المفاهيم الى الوقائع بدون معرفة الى أين نتجه
أو أين نتوقف جعل علم النفس العام الشائع لا يعرف أبدا هل
ما بلغه هو الكل أو هو جزء فقط . ولذا فهو يؤكد دائما أنه بلغ
الكل . وهو ينبغي أن يعرف كل شيء اعتمادا على حالات خاصة

تماما ، فالأبحاث المتعلقة بالادراك مثلا كانت متركزة حتى وقت قريب حول مشكلة ادراك الاشياء لا لشيء الا لأن التصور الكلاسيكي يعتبر الادراك وسيلة معرفة العالم الخارجي . والمشكلة الرئيسية عندئذ هي معرفة كيف يدرك الانسان عموما الاشياء بصفة عامة . ولكن ربما لا يكون ذلك سوى حالة خاصة ومجردة تماما . فبأى حق لا ندفع بالتحليل قدما الى الموقف حيث يكون « الفرد المدرك » ، « عاملا » « والشيء المدرك » آلة ؟ فمن الواضح أن التجريد والشكلية هما اللذان يجعلان من الادراك عموما مركز الاهتمام . الا اننا اذا اردنا ان ندرج جانبا هاتين الخطوتين وسرنا حتى النهاية أى حتى الدراما ، فان الاسلوب الكلاسيكي لعرض المشاكل كله يفقد معناه تقريبا . فاذا دفعنا مثلا تحليل الادراك الى النقطة التي يكون فيها الفرد المدرك عاملا والشيء المدرك آلة بشكلها المحدد فان المشكلة المبدئية التي بدأنا منها تصبح فجأة غير ذات موضوع ، اذ نجد محل مشكلة الادراك مثلا مشكلة « سيكولوجية العمل » .

فاذا طبقنا اسلوب التفكير هذا على مجموع مشاكل علم النفس العام فسنجد أننا سنستبدل بسيكولوجية الادراك والذاكرة والارادة والعواطف سيكولوجية العمل والحرفة ، والتعلم فى الصناعة .

اليكم السمة الثالثة قبل العلمية لعلم النفس العام الشائع :
وهي أن أبحاثه أبحاث شائبة تقف قبل أن تستطيع بلوغ الوقائع المتعلقة بها بالدقة اللائقة . وهذا أمر محتم . ففسوء حظ هذه السيكولوجيا يتمثل بالذات فى عدم استكمال أبحاثها مما يجعلها غير كافية ، بينما اذا حققت ما هو مطلوب منها تصبح غير ذات غناء .

وهكذا يتضح الطابع الحقيقى لما اصطلح على تسميته بالسيكولوجيا العلمية .

والغلظة الكبرى لهذه السيكلوجيا المسماة بالعلمية أنها
تذهب أبعد مما ينبغي وأقل مما ينبغي معا . فهي تذهب بعيدا جدا
في الاعداد لتجاربها ولكنها لا تذهب بما فيه الكفاية فيما يتعنى
بالأسلوب الذى تتصور به هذه التجارب . فهي تدرس بترف بالغ
من الاجهزة والاحتياطات العلاقات بين الادراك الضوئى والحركات
مثلا . وهى لا تكاد ان تقنع بالاحتياطات التى تتخذ والاجهزة
المستخدمة مهما بلغت من الدقة ولا يوجد سوى شىء واحد يقنعها
تماما وهو بالذات ما نراه قاصرا ونعنى به تصور الظاهرة التى تجرى
عليها التجارب فهى تبدأ فى الواقع من الادراك الضوئى عموما
والحركة عموما وتبحث بعد ذلك عن ظاهرة تمثل بطريقة متميزة
الادراك الضوئى عموما والحركة عموما والمشكلة العامة للعلاقات
بينهما فى نفس الوقت . ولكن التجربة شائبة كما سبق القول .
فاذا كان الضوء يؤثر على الانسان فلا يحدث ذلك الا فى ظروف
محددة وما يدخل الضوء معه فى علاقات ، ليست الحركة فى عمومها
وانما أفعال انسانية . فالبحث عن العلاقة بين الادراك الضوئى
عموما والحركات عموما انما هو من عمل التجريد والشكلية وان
ما يسمى « بحالة متميزة » ربما لا تكون الا حالة خاصة لا نجعل
فقط دورها الحقيقى فى الدراما بل نعلينا لا تحدث فيها على
الاطلاق .

ويجب على العكس أن ندفع التجربة حتى النهاية ، حتى اللحظة
التي نجد فيها الدراما ثم نحلل بعد ذلك الظاهرة كما نجدها
وبالشكل الخاص الذى نجدها عليه . فسنجد مثلا أن العمال الذين
يقومون بعمل محدد فى اضاءة محددة ينتجون عائدا محدد . وأن
تغيير الاضاءة قد يزيد من هذا العائد أو يقلله . وهكذا نلاحظ اننا
ابتعدنا عن المشكلة التى بدأنا منها ، فنجد بدلا من المشكلة العامة
للادراك والحركة ، المشكلة المحددة المعطاة فعلا عن الاضاءة وانتاجية

العمل • ويستطيع الجميع أن يقرروا هنا أنه يجب أن تكون هناك غمامة على العين لكي لا نرى في هذه الظاهرة الأخيرة « ادراكا » من ناحية « وحركة » من ناحية أخرى •

ويمكننا بالتأكيد أن نعود من هذه المشكلة الخاصة وأمثالها الى المشكلة العامة • ولكن يجب أن نبدأ بالمسئلة الخاصة ، غربا وصلنا الى مشكلة عامة مختلفة تماما • وعلى أى حال فاننا اذا ما انطلقنا من فكرة الادراك وفكرة الحركة وأدركنا انجاز البحوث والتجارب فسنجد أنفسنا أمام ما لا يمكن تحقيقه : فلا يمكن أن نستبدل التركيب بالاستقراء •

فالسيكولوجيا المسماة بالعلمية ليست اذن - اذا ما طرحنا جانباً أو هامياً الفلسفية وطابعها الأسطوري - خاطئة • ولكنها مع ذلك قبل علمية • والسمة قبل العلمية تتلخص هنا في أن السيكولوجيا « العلمية » قد قلبت التتابع الطبيعي للأشياء وذعبت تعمل بطريقة مضادة للطريقة المعتادة التي تعمل بها العنزم التجريبية •

ويجب على السيكولوجيا بالتأكيد - شأنها شأن العلوم الوضعية - أن تصل الى تعميمات أو الى معلومات عن الوظائف العامة ونكتنبا يجب أن تنتهي الى تلك التعميمات عن طريق التعميم أيضا ، لا أن تبدأ بالتعميمات كما تفعل السيكولوجيا « العلمية » • ولكي تحتفظ السيكولوجيا بالتعميمات التي أتت بها كما هي اليوم يجب أولا أن نتبين ما اذا كان تحليل الظواهر الموجودة بالفعل أى الظواهر الدرامية لا يصل الى تعميمات مختلفة تماما •

ومن ناحية أخرى فان سيكولوجيا الاحداث الموحدة القالب كسيكولوجيا العمل تحتاج بالتأكيد لمعارف مستمدة من الفسيولوجيا • الا أن هذا ليس سببا لنبداً بالفسيولوجيا : ففي هذه الحالة سنكون

أمام ما لا يمكن تحقيقه مرة أخرى . لأن التحليل للأحداث الدرامية هو وحده الذى يستطيع أن يبين لنا ما هي بالضبط المساعدة التى نطلبها من الفسيولوجيا . فعلم النفس الفسيولوجى يريد على العكس ، بسبب ازوراره عن البدء من الدراما ، أن يحسم الأمر قبلها بفروض حول العلاقة بين ظواهر الشعور والجهاز العصبى . وهى فروض مناسبة بلا شك اذ تسمح باقامة « العلم » كله قلما . وهكذا يستعار من الفسيولوجيا كل ما لا حاجة للسيكولوجيا به ويترك ما هو ضرورى بالفعل ولما كانت السيكولوجيا بنى عن الانزلاق فى الاستعارات اللفظية لاستكمال ما ينقصها فان النتيجة انها تقف ببساطة فى منتصف الطريق . وهنا أيضا نجد الوضع مقلوبا : فلا يحدث أبدا أن مجال العلم الوضعى يتحدد ومناهجه تعرف ابتداء من العلوم المساعدة ، فنحن لا نحدد مجال الفيزياء مثلا ابتداء من الاحصاء . لأنه بدون تعميق أبحاث الفيزياء لم يكن من المستطاع أن يقال أن الفيزياء ستحتاج يوما للأسلوب الاحصائى . فالأبحاث التى تمارس التحليل الفعلى للدراما ، وخاصة للدراما الموحدة القالب هى التى تجعل من علم النفس الفسيولوجى المرحلة قبل العلمية . ولكن لا يوجد بين الفسيولوجيا الخائصة وسيكولوجيا الدراما مكان لعلم نفس فسيولوجى لايهتم الا بالظواهر نصف المتصورة ، تماما كما لا يوجد مكان بجانب الفيزياء لفيزياء أخرى لا تدرس فى الميكانيكا سوى سقوط الاحجار ، وفى الحرارة سوى الماء الساخن ، وفى الكهرباء سوى كرات نخاع البيلسان . غير أنه ليس من الانصاف أن نقول أن علم النفس العام الشائع والسيكولوجيا المسماة « بالعلمية » وعلم النفس الفسيولوجى هى وحدها قبل العلمية . فقد قلنا من قبل انها على الأخص اسطورية ، ونحن لم نؤكد الطبيعة قبل العلمية الا لبعض نتائجها التى تحوى جزءا من الحقيقة . ذلك أن نتائج التراث الدرامى هى أيضا قبل علمية ،

فالادب والمسرح والمعرفة العملية بالانسان، هي بالذات التي تكون في مجموعها السيكولوجيا قبل العلمية فعلا . وتأتي الطبيعة قبل العلمية هنا من انعدام التنظيم للأساليب المستخدمة ومن عدم كفاية التحليل الدرامي (*) في نفس الوقت .

وكما قلنا قبل ذلك فان الاساليب المستخدمة في الأدب ولدى « العارفين بالانسان » ليست بعد سوى الحيرة الدرامية الشائعة . الا أن هذه العمليات التي تكفي لمتطلبات الحياة العادية لا تكفي للمعرفة بالمعنى العلمى لهذه الكلمة ، إذ أنها لا تتصف بالعقلانية ولا بالتنظيم وهي ليست عقلانية لأننا لا نعرف بالضبط وظيفتها ولا مداها المحدد . فنحن لا نعرف مثلا ما الذي تزودنا به الملاحظة الدرامية البسيطة وما الذي لا يمكنها أن تزودنا به . ذلك أن تلك الاساليب غير منظمة ما دام ليس بوسعنا لا في الأدب ولا في المعرفة العملية بالانسان - أن نعين بالضبط هذه الأساليب وأن نستخدمها بعد ذلك بتعقل .

وهذا هو السبب في أن المعطيات الفعلية للملاحظة تختلط في كل لحظة بالمقتضيات الأخلاقية والاجتماعية أو الدينية . وهذا هو ما يجعلنا أيضا نستخدم بلا تفكير بعض المسلمات التي تمثل تعميما غير شرعى للخبرة الشائعة . وهكذا توجد مجموعة من العلاقات ذات الدلالة في متناول كافة الناس مباشرة ، وهي العلاقات الشائعة ذات الدلالة التي تدخل فيها عادة أقوالنا وأفعالنا . فالمعرفة العملية بالانسان تعميم وهي يعتقد أن أقوالنا ومعانينا لا تدخل دائما الا في علاقات ذات دلالة متعارف عليها وهي تفسر أقوالنا وأفعالنا على مستوى الدلالات المتعارف عليها . ونجد أنفسنا هنا بصدد مسلمة : هي : ما أطلقنا عليه مسلمة الدلالات المتعارف عليها (نقد أسس السيكولوجيا . جورج بوليتزير) . فقد يحدث في ظروف بعينها

* نحن لا نهتم بالفكرة القائلة بأن المعرفة العملية بالانسان قبل علمية لأنها تبدأ « بالحدس » فنحن لا نعلم ما هو المقصود بكلمة « حدس » : المؤلف

أن قولاً أو فعلاً. يعنى شيئاً آخر غير الدلالة المتعارف عليها والتي يحملها عادة ذلك القول أو الفعل، أو أن لها دلالة على حين أنها على مستوى الدلالات المتعارف عليها تبدو بغير دلالة . وهذه هي حالة الحلم والأعراض العصابية التي تستدعى معرفة دلالاتها بحث مجال الدلالات الفردية . أما المعرفة العملية بالانسان المطبقة على تفسير الدلالات المتعارف عليها فهي عاجزة عن اكتشاف هذا المجال .

فعدم كمال طرق البحث يؤدي بالطبع الى عدم كفاية التحليل الدرامي . والتحليل الدرامي نفسه موجود بالتأكيد في الأدب وفي المعرفة العملية بالانسان لأنها تحلل الدراما بواسطة الدراما نفسها . ولكنها تقف عند السطح بدلا من الوصول الى العناصر العميقة للدراما . فهي تفسر الفعل الانساني بعوامل عامة : الغرور، الطموح، الحب ، الرغبة في الحياة أو الرغبة في الموت ، المصلحة . . . الخ . الا أن هذه العوامل نفسها مستقاة من سطح الخبرة الدرامية ولا تمثل تشريحا حقيقيا ، كما هو الحال مثلا في تفسيرات التحليل النفسي . وهكذا لا يبلغ التحليل الدرامي دقة الدراما الحقيقية . فدوستويفسكى يقدم لنا شخصيات تهدم بانتظام في اللحظات الهامة من حياتها السعادة التي تنتظرها ، الا أن الدقة لا تذهب الى أبعد من ذلك الذي يقدمه لنا . بل على العكس لا نرى السبب في نشوء هذه الرغبة في التعاسة اذا بدأنا من الحياة الفريدة للفرد المعين موضوع الدراما ، مثلما نرى بعد التحليل أن الحلم في الشكل الذي ظهر به لا يمكن أن يحلمه الا ذلك الشخص الذي حلمه . . . وهكذا الحال بالنسبة للمعرفة العملية بالانسان . وهذا طبيعي فان الابرار الدقيق للحتمية الفردية خطوة خطوة لا يمكن الا بفضل العناصر الاساسية للدراما ، تلك العناصر التي لا يمتلكها الادب ولا المعرفة العملية بالانسان ولن نستطيع بواسطتهما كذلك أن نصل اليها طالما ظلت أساليبيهما كما هي .

وسنطلق على شكل السيكولوجيا الحاطئين اسم الميتاسيكولوجي
رغبة في التبسيط . وهذا التعبير في الواقع بعيد عن الصحة .
فالسيكولوجيا الميثولوجية هي فقط التي توجد « فيما وراء » الدراما .
أما السيكولوجيا قبل العلمية فأخرى أن توجد « فيما بعدها » . إلا
أن مشاكل واهتمامات وتقاليد الاثنين بعيدة عن اهتمامات
السيكولوجيين ، على الأقل عن اهتمامات هؤلاء الذين يريدون إقامة
سيكولوجيا وضعية .

وهكذا يصبح من الممكن تعريف ماذا يوجد على هذا الجانب أو
ذاك في التناقض بين الشكل الحاطيء علميا والصحيح في
السيكولوجيا .

فن ناحية توجد الميتاسيكولوجي وتشمل :

- ١ - ميتاسيكولوجيا النفس جوهر ame substance وتتكون من
كل الاعتبارات الميتافيزيقية المتعلقة بالنفس .
- ٢ - ميتاسيكولوجيا ظواهر النفس ، أو ميتاسيكولوجيا الحياة
الداخلية وتتكون من كل الاعتبارات المتعلقة بأحوال النفس والعمليات
العقلية وظواهر الشعور وطبيعتها وخصائصها وتصنيفها ، وبشكل
عام الحياة الداخلية بأي طريقة توجد بها .

٣ - الميتاسيكولوجيا الوظيفية وتشمل كافة الاعتبارات المتعلقة
بالوظائف العقلية وكذلك كل الاعتبارات الوظيفية التي تتخذ

* لا بد أن بوليتزير بالرغم من اطلاعه على منجزات التحليل النفسي
كما هو واضح من الفقرات السابقة - لم يفتن الى ان لفظه «ميتاسيكولوجيا»
مصطلح في التحليل النفسي يشير الى المفاهيم النظرية : الدينامية - البنائية -
الاقتصادية ، فاستخدمها في المعنى الذي بوضحه في هذه الفقرة والذي يضع
« الميتاسيكولوجيا » على نفس مستوى مصطلح الميتافيزيقا . (المراجع)

موضوعا لها واحدا أو أكثر من الوظائف العقلية فى السيكولوجية الشائعة ، وبشكل عام كافة الاعتبارات الوظيفية التى لم يستخلص موضوعها مباشرة من تحليل الدراما الفردية أو الدراما الموحدة القالب والتى لا تبلغ دقة الدراما كما هى معطاة .

٤ - ميتاسيكولوجيا الشخص وتشمل كافة النظريات المتعلقة بالذات والأنا والشخص والفرد والتى لا تنطلق من تحليل الفرد فى فرديته ، والعاجزة عن أن تبرز الحتمية المستمرة للمحتوى الخاص بحياة الفرد .

٥ - ميتاسيكولوجيا الانسان وتكون من كافة النظريات المتعلقة بأفعال وسلوك الانسان والتى لا تتخذ أساسا لها التحليل الدرامى والتى لا تصل الى كشف العناصر الدرامية الموجودة تحت سطح الخبرة الدرامية الجارية .

ومن بين أضرب السيكولوجيا الخاطئة يكاد يجمع كافة علماء النفس على أن ميتافيزيقا النفس (الروح) هى وحدها التى تنتمى الى الميتاسيكولوجيا . أما أضربها الأخرى فما زال لها صيت السيكولوجيا إنوضعية .

والجزم الآن أن يصبح المدى الكامل لمفهوم الميتاسيكولوجيا معروفا فى النهاية وأن يمتد نزع الثقة الذى يدمغ اليوم أنصار ميتافيزيقا النفس - أمام أعين أنصار السيكولوجيا الوضعية - الى أنصار بقية أضرب الميتاسيكولوجيا . فنحن نقول بوضوح : أننا لا نستطيع أن نعتبر علماء النفس الذين لا يريدون أن يفيدونا بأى شئ عن العمليات النفسية ، علميين . فقضايا الحياة الداخلية قد تسرنا لكنها لا تنتسب الا الى الاساطير . كذلك لا نستطيع اطلاق لقب عالم على هؤلاء الذين ، تحت اسم نظرية الإدراك أو نظرية الإرادة أو نظرية الانفصالات . . الخ ، يؤلفون روايات قد تكون

ناجحة أو مسلية بعض الشيء . لأن العالم هو الذى يعرف شيئا ما
عما هو موجود فعلا . أما هذه النظريات فهي بالنسبة للمعرفة
السيكولوجية كاعتبارات « قسوة الطبيعة » بالنسبة للمعرفة
الفيزيقية . وهذه هي الحال بالنسبة للنظريات عن « الأنا » .

فالنظريات التى تقول « الأنا هي الارادة » أو « الأنا هي مركب
synthèse أو « الأنا هي بناء » لا تحمل لنا شيئا ، لأن الموضوع
الذى نرغب معرفة شيء عنه هو الأفراد المعينون الذين يحيون حياة
محددة المحتوى . ومن ناحية أخرى نحن لا نستطيع أن نكتفي
بتوكيدات غامضة حول دوافع الفعل الانسانى . نحن نريد الآن ،
ونحن بصدد العلم ، أن نودع رجال الادب والأخلاق ومعهم
ميتاسيكولوجيا الانسان .

أما فيما يتعلق بالجانب الآخر المعارض فنحن نريد أن نقول
ببساطة أنه في مقابل الميتاسيكولوجيا تقف الوضعية . ولكن الفوضى
الحالية في السيكولوجيا كبيرة جدا لدرجة أننا لانستطيع أن نستغنى
عن اطلاق تسمية خاصة حتى على هذا الشكل من السيدونوجيا الذى
يصبو الى أن يكون وضعيا . لذلك نحن نريد أن نستعير الاسم
المستخلص من السمة الأساسية التى تمثل الفرق الحقيقى بينها وبين
الميتاسيكولوجيا لنعطيه للشكل الحقيقى للسيكولوجيا .

فالميتاسيكولوجيا تتميز بتحويل الدراما بمساعدة الواقعية
الروحية والتجريد والشكلية . واذا أردنا أن نعبر فى صيغة واحدة
عن العيب الجذرى للميتاسيكوجيا فيجب أن نقول أنه خان الواقع
العيانى concret ثلاث مرات . فكل خطوة من خطواته الرئيسية
تقابلها خيانة معينة .

فالواقعية الروحية تلفى واقع الظاهرة الدرامية نفسه كما هو
معطى عيانيا . والتجريد يستبدل بالأفراد العيانيين الذين يكونون

موضوع الدراما ، ممثلين آخرين لا شخصيين • والشكلية تلغى
الأسلوب المحدد الذى تتعين به الوقائع الدرامية ولا تحتفظ الا
بأشكال لا يوجد للحمية الفردية فيها مكان • وهكذا يكون عالم
الميتاسيكولوجيا مجردا بالمعنى الكامل للكلمة ، عابثا من العمليات
والوظائف التى تحلق عاليا فوق الحتمية الفردية للدراما وتخضع
لعلاقات ليس لها أى مغزى انسانى •

أما السيكولوجيا الوضعية التى ترفض هذه الخطوات فانها
ترجع الى العيانى • فمن «منجزات» réalisation الميتاسيكولوجيا
تعود الى وقائع الدراما ، ومن الوظائف والعمليات تعود الى الأفراد
كما هم ، ومن مفاهيم التصنيف تعود الى الوقائع الدرامية فى حتميتها
الفردية • فتخطى السيكولوجيا الاسطورية هو اذن عودة الى العيانى •
وتتميز السيكولوجيا الوضعية فى مقابل الميتاسيكولوجيا بأنها
سيكولوجيا عيانية فالسيكولوجيا العيانية ليست اذن احدى
السيكولوجيات ولكنها هى السيكولوجيا بالمعنى القاطع المانع لهذا
التعريف •

ومن ثم نقول :

١ - أن السيكولوجيا هى علم موضوعه مجموعة الوقائع
الأصيلة الفريدة المسماة « الدراما » فالوقائع السيكولوجية اذن هى
أجزاء الدراما وكذلك ينبغى أن تكون الواقعة السيكولوجية البالغة
البساطة جزءا من الدراما كذلك •

٢ - ونحن نطلق أيضا اسم « اسطورى » على هذا الشكل من
السيكولوجيا الذى يحول الدراما الى عمليات عقلية عن طريق
الواقعية الروحية والتجريدية والشكلية كما نطلقه بصفة عامة على
كل سيكولوجيا توجد فيها هذه الخطوات بأى شكل من الأشكال •

٣ - كذلك نسمى « قبل علمى » كل شكل من أشكال

السيكولوجيا لا يستمد من التحليل الحقيقي للدراما خطة لدراسته
ومجموعة مشاكله ، ولا تمس توكيداته الظواهر الدرامية في صميم
دقتها .

٤ - ونطلق كلمة ميتاسيكولوجيا على مجموعة البحوث
والنظريات التي حددناها في التعريفين ٢ ، ٣ .

- ١٤ -

ونود هنا أن نضع جانبا القيمة الوضعية لمفهوم السيكولوجيا
العيانية concrète ، لكي نتفرغ للأسلوب الذي تمكننا بواسطته من القاء
ضوء جديد على كل الصعوبات والاعتراضات التي تكون الأزمة الحالية
للسيكولوجيا . فاذا كانت هذه السيكولوجيا العيانية هي بالفعل
السيكولوجية الوضعية لوجب أن تقدم لنا فعلا الرؤية الجديدة
للمشاكل ، تلك الرؤية التي نتوقعها من مفهوم وضعي حقا
للسيكولوجيا .

فالمشاكل بشكلها القائم اليوم لا تتناول الجوهر ، كما أن
العبارات التي تصاغ فيها التعارضات الكبيرة في السيكولوجيا
المعاصرة لا تعبر عن الموقف الحقيقي . فالحظا يكمن دائما في احلال
الأشياء في غير محلها ، ويكون الجوهر في كل مرة عودة الى العياني .
وهذا هو السبب في أن السيكولوجيا العيانية تمثل الجماع * الحقيقي
للأضداد القائمة كما أنها قادرة على حل الصعوبة الكامنة في أساس
كل منها .

* الجماع من كل شيء مجتمع أصله (المجمع الوسيط) . يسم بوليتزير
هنا الى فكرة ديالكتيكية . فهو يرى أن السيكولوجيا العيانية تمثل جماع
الاطروحة synthèse لنقائض الاطروحة antithèses المثلة في نظريات
علم النفس المختلفة . وتترجم these ياطروحة و anti these
نقبض اطروحة و synthèse جماع الاطروحة . (المراجع)

١ - والصعوبة التي تكمن في أساس التعارض بين السيكلوجيا الذاتية والسيكلوجيا الموضوعية هي ضرورة اهتمام السيكلوجيا بوقائع لها - منطقيا - نفس تركيب وقائع أي علم آخر . وينبغي أن تظهر هذه الوقائع تحت نفس الشروط التجريبيه ، على أن تظل في الوقت نفسه وقائع أصيلة . ولكن السيكلوجيا الموضوعية لا تفي بما جاء في الشرط الثاني على حين لا تفي السيكلوجيا الذاتية بما جاء في الشرط الأول . وكلا السيكلوجيتين لا تفيان بالشرطين معا . لأن كلا منهما تبحث عن الواقعية السيكلوجية في الإدراك . وتؤيد السيكلوجيا العيانية الاتجاه الموضوعي لأنه يتمسك بضرورة رفض اعطاء السيكلوجيا موضوعا لا يمكن دراسته بنفس شروط العلوم الطبيعية ، كما تؤيد انسيكلوجيا الذاتية حين تتمسك بالسمات الفريدة الأصيلة للوقائع السيكلوجية وتعيب السيكلوجيا العيانية على كل من الاتجاه الموضوعي والذاتي أنهما بحثا عن موضوع السيكلوجيا في الإدراك البسيط ، فالدراما التي ليست داخلية أو خارجية لا تنتج عن الإدراك .

٢ - والصعوبة التي تكمن في أساس التعارض بين السيكلوجيا كعلم « طبيعي » والسيكلوجيا كعلم « أخلاقي * » تأتي من ضرورة إدراج المقولات الأساسية وأساليب العلوم الطبيعية procédés في داخل السيكلوجيا بشرط أن تظل محتفظة للظواهر السيكلوجية بالطابع الانساني الذي لا يتوفر الا عن طريق الجانب ذي المعنى في الدراما . ولكن لا يمكن للسيكلوجيا بوصفها علما طبيعيا أن تدخل الى السيكلوجيا المقولات وأساليب العلوم الطبيعية بدون أن تخفي الطابع الانساني للظواهر السيكلوجية ، ولا يمكن للسيكلوجيا بوصفها علما « أخلاقيا » أن تنقذ هذا الطابع الانساني الا بأن تنقل

* في الاصطلاح الفرنسي science morale مقابل للاصطلاح الالمانى
Geisteswissenschaftliche انظر هامش ص ٢٣ (المراجع)

الظواهر السيكولوجية الى مستوى يجعلها بعيدة عن متناول المقولات
والمناهج العلمية . وتؤيد السيكولوجيا العيانية . هذين الاتجاهين
من حيث تشبث كل منهما بما هو ضرورة لكل منهما . ولكنها تأخذ
عليهما أنهما بحثا عن موضوع السيكولوجيا في عالم بعينه . أحدهما
في عالم الطبيعة والثاني في عالم الروح بدلا من أن تبحثا عنه في
الدراما . لأن كلا العالمين لا يمكن أن يظهر في المجال السيكولوجي
الا بنوع من التجريد للدراما . وعلى العكس من ذلك اذا ما قبلنا أن
نطرح جانبا هذه التجريدات لأمكننا تطبيق المقولات ومناهج العلوم
الطبيعية في السيكولوجيا ، دون أن تفقد الظاهرة السيكولوجية
طابعها الانساني ونحتفظ لهما بصفتهما الانسانية دون أن يصير
العلم السيكولوجي علم الزوح الموضوعية .

٣ - والصعوبة التي تكمن في أساس السيكولوجيا التحليلية
والسيكولوجيا التركيبية توجد في ضرورة تجزئة الطابع الكلي الى
العناصر التي يتكون منها مع المحافظة على كلية الفرد في نفس الوقت،
تلك الكلية التي لا يمكن تصور الدراما بدونها . ولانصار التحليل
(الى عناصر) الحق حين يؤكدون أنه يتعين على السيكولوجيا أن تتبع
هي أيضا أسلوب التجزئة . ولانصار فكرة التركيب والشكل
والكلية ، الحق أيضا في رفضهم تفتيت الحياة السيكولوجية الى
جزئيات من العناصر بحيث لا يمكن جمع الحياة السيكولوجية منها
من جديد . ولكن يخطئ كل من الاتجاهين حين يعتقد أن المنهج
التحليلي والمنهج التركيبي يجب تطبيقهما في الحياة السيكولوجية كما
عرفتها السيكولوجيا الدارجة ، أعني بوصفها نتائج للنقل . واذا
ما تحدد موضوع السيكولوجيا على أنه الدراما فان كلية الفرد تصبح
افتراضا مبدئيا أساسيا لا يمكن ادراك أى ظاهرة أو مفهوم
سيكولوجي بدونها ، وفي هذه الحالة يصبح التحليل الجزئي ليس
ممكنا فقط بل وخصبا . والسيكولوجيا العيانية اذ تجزيء الدراما

تتجه الى عناصر بدورها درامية وتتضمن كلية الفرد مثلما تتضمن الظاهرة أو الظواهر المجزأة هذه الكلية .

٤ - والصعوبة في أساس التعارض بين السيكولوجيا « الاستقرائية » والسيكولوجيا « النفاذة » (الى الاعماق) تكمن في ضرورة الوصول الى قوانين ، وهي قوانين يجب أن تكون عامة وفي الوقت نفسه خاصة بالحياة السيكولوجية . ولأنصار السيكولوجيا الاستقرائية الحق في محاولة استخدام الاستقراء ، كما يحق لأنصار السيكولوجيا « النفاذة » أن ينكروا القيمة السيكولوجية لاستقراءات السيكولوجيا الدارجة . ويخطيء كلا الاتجاهين حين يعتقد أن الاستقراء كما استخدمته عموما السيكولوجيا الدارجة هو استقراء بالمعنى الصحيح للكلمة . لأن عالم السيكولوجيا الكلاسيكي يطبق الاستقراء على نتائج التحول (*) . وهذا التحول يهدم الدراما . ان التعميمات التي يعتقد اننا استخلصناها من الاستقراء ، صادرة في الواقع من خطوات التحول . وعلى أي حال لما كان التحول قد أزال الدراما فإن الاستقراءات التي أجريت على نتائج التحول لا يمكن أن تتضمن أية معلومات خاصة بالدراما . ولهذا السبب تبدو هذه الاستقراءات فارغة . وبالعكس تنتهي الاستقراءات الصادرة عن الدراما نفسها الى تعميمات درامية قابلة للتطبيق على الدراما التي استنبطت منها .

وهذا الشرح الذي يثبت أن السيكولوجيا العيانية لا تقدم حلا وسطا ، بل تقدم تركيبا حقيقيا ليس مجرد تمرين مدرسي بسيط . فالمتطلبات التي أدت الى التناقضات التي نحن بصدها حقيقية حقا لدرجة لا تسمح لنا ان نعتبرها خاطئة ، غير أن تاريخ السيكولوجيا يثبت لنا أن هذه المتطلبات غير كافية أيضا بالشكل

* التحول أو النقل Transposition

الذى تحققت به ، لذلك ينبغي تخطى هذه المتطلبات • فما أردنا قوله فيما سبق أننا لا نريد أن نقدم حلا من حيث المبدأ لهذا التناقض النظرى المحض ، بل نريد أن نشير الى الاتجاه الذى يوجد فيه حل واقعى للصعوبات الحقيقية •

وعلى أى حال فاذا نجحت السيكلوجيا العيانية أينما كانت فى فرض نفسها (كجماع) فان الاضداد (اضداد الجماع) داخل الاعتراضات الموجهة الى السيكلوجيا العلمية العسادية هى من متطلبات السيكلوجيا العيانية الا أنها لم يفتن اليها بقدر كاف

وان الاصاله المميزة للظواهر السيكلوجية التى يدعو اليها أنصار سيكلوجيا الاستيطان هى فى الحقيقة أصالة الدراما ، تلك الاصاله التى - رغم عمليات التحول - يستشعرونها فى غير وضوح اذ لا يدركون طبيعتها الحققة من جراء عمليات التحول • فالسيكلوجيا كعلم « اخلاقى » geisteswissenschaftliche تطالب فى واقع الأمر بالعودة الى الدراما ، ولكن هذه الدراما عندهم قريبة جدا من التحول حتى أن السيكلوجيا المذكورة لا تستطيع الا ان تعتقد بضرورة تأمين استخدام وجهة نظر الدلالة ، بأن يجعلوا من « الروح » مفهوما متضمنا فى الظواهر السيكلوجية ، بل ان الاتهام الذى به تهتم السيكلوجيا الكلاسيكية الأشكال والأبنية ما هو بدوره الا اعتراض لا زال غامضا ضد التحول المميز للميتاسيكلوجيا بوجه عام • كما أن تأكيد أولوية وسيادة الأشكال والأبنية ليس الا تأكيدا ناقصا للالتزام الذى يعتبر كل الظواهر والمفاهيم السيكلوجية أجزاء من الدراما وأنها أى - الظواهر والمفاهيمات - يجب أن تنتسب الى حدث درامى يتضمن دائما الفرد باعتباره « كلا » • واتهام الاستقراء بالعقم فى المجال السيكلوجى ليس فى الواقع الا لعجزه عن تطبيقه على الدراما ، واحلال « الفهم » أو « النفاذ » محل الاستدلال ليس

الا اسلوبا غير مباشر للمطالبة بأن يبدأ الاستقراء لا من نتائج التحول الذي أصاب الدراما ولكن من الدراما مباشرة .

- ١٥ -

وعلى أى فان السمة المميزة للسيكولوجيا العيانية لا تتمثل فقط فيما تقترح من امكان تخطى أضداد (الأطروحة) في السيكولوجيا الراهنة . ولكن اذا كان علينا خلال تخطى هذه الأضداد أن نخترع السيكولوجيا العيانية بأكملها فسيكون لنا الحق في أن نرتاب فيها . وعلى العكس ، فالسيكولوجيا العيانية لا تحتاج أن نخترعها بأكملها فقد سبق أن تحققت بصورة جزئية ولكن كان ينقصها الثبات *consistence* والتماسك *cohérence* اللذان ينتجان عن طريق التصفية النهائية للميتاسيكولوجيا . وابرار الالهام الفكرى الجديد ذلك الالهام الذى يمكن فى ظل هذه الأحداث هذه التصفية .

فما نسميه بالسيكولوجيا العيانية ليس فى حقيقة الأمر الا هذا الالهام الجديد الذى يسيطر سيطرة فعالة على بعض البحوث التى تمثل على مستوى الابحاث الوضعية نفسها قطعة بينه وبين الميتاسيكولوجيا كلها ، كما يمثل فى نفس الوقت عودة للتراث الدرامى . فليست بنا حاجة اذن أن نخترع ، من الألف الى الياء تنظيما كاملا لمناهج المعرفة العملية ، بالانسان . فذلك ما تقوم به فعلا منذ مدة السيكولوجيا الصناعية . والمطلوب هو معاونة هذه البحوث بالذات لكى تعي تماما بنفسها . وواجبنا أن نشير الى أن هذه البحوث ليست علوما مستقلة ولا هى أجزاء خاصة من السيكولوجيا الدارجة لأن الأشكال الحقيقية لأى بحث علمى لا تسمح

يقيام أشكال خاطئة بجوارها ، ومن باب أولى فهي ليست أقساما منها . وينبغي أن نبين من جهة أخرى أن السيكولوجيا الصناعية والقياس السيكولوجي psychotechnique بصفة عامة لا يمثلان « السيكولوجيا التطبيقية » فما هو هذا الذي يطبقان ؟ انه لا يجوز القول ان فيزياء ديكرات هي تطبيق لفيزياء أرسطو وان العودة للشكل الحقيقي للبحث العلمى هي الجزء التطبيقى للشكل الخاطىء من هذا البحث .

وعلىنا أن نبين بصفة عامة أن كل هذه البحوث تمثل بالذات استبعاد هذا الشكل من السيكولوجيا الناتج عن اهتمامات احيائية كما تمثل عودة الى التراث الدرامى مع ازالة عمليات التحول .

وعلىنا أن نبين أيضا أنه لم يكن للواقعية الروحية والشكلية والتجريدية أى دور فى المعارف التى زودتنا بها الاتجاهات التى نحن بصددھا ، وعندما استطاعت (الواقعية الروحية) الوصول الى اكتشافات حقيقية فلم يتم لها ذلك الا بالتحول عن هذه الخطوات والتحرر منها . وبعبارة أخرى نقول أن هذه البحوث التى تمثل العودة الى التراث الدرامى ينبغي أن توضع من الآن فصاعدا فى بؤرة الاهتمامات النظرية للسيكولوجيين المستغرقين تماما للآن فى البناء المركزى للميتاسيكولوجيا .

- ١٦ -

من كل ما سبق يتضح أن السيكولوجيا العيانية يصعب « تنفيذها » بطريقة مدرسية بحث ولكى يمكن تنفيذها ينبغي أن يبين أنه لم يحدث أى انتقال من الاهتمامات الدرامية الى الاهتمامات

الاحيائية وان عالم الظواهر النفسية لا يستدعى تحول الدراما وأنه ليس ناتجا عن الخطوات الثلاثة التي وصفناها أو - اذا اعترف بوجود التحول - ينبغي بيان أن خطوات التحول شرعية مفيدة. وخصبة وأن هذه الخطوات تعطينا بالتالي معرفة دقيقة بالدراما ، وهي المعرفة التي كنا نتطلبها من السيكولوجيا منذ نشأتها .

ويجب علينا خاصة - والأجدر أن نبدأ من هنا - أن نثبت أن هذه الاتجاهات التي الممنا إليها قد صدرت عن التحول ، لا في تركيباتها النظرية وحسب بل وفي سيرها نحو الاكتشافات الجديدة لأن التركيبات النظرية لا تعنى شيئا سوى تخوفها من الميتاسيكولوجيا .

ويكفينا هذا الالتزام لأنه يعنى أن تدور المناقشات حول

الخطوات الأساسية للسيكولوجيا ذلك أنه يجب على كل نقد يدعى أنه يتناول فعلا أسس السيكولوجيا أن يستهدف الخطوات التي تهيمن على أساليب حصول السيكولوجيا على وقائعها ومفاهيمها وأن يصدر حكمه على عدد وشرعية هذه الخطوات . وكل محاولة ترمى الى حل الأزمة الراهنة لا تستطيع أن تغفل مثل هذا النقد لأنه الوحيد القادر على اعطاء تعريف واضح لا لبس فيه للسيكولوجيا . فإذا كانت سيكولوجيا خاطئة وجب التخلي عنها ، واذا كانت قبل علمية وجب تخطيها . ويمكننا أن نحكم على كل ادعاءات اصلاح النفسية من خلال الوضوح الذي تأتي به في هذه النقطة بالذات .

الباب الثاني

إلى أين توجه السير لرجب العاينة ؟

لقد أثار ما عرضناه من شعارات وبرامج « السيكولوجيا العيانية » حتى الآن نوعين من الاستجابات لها مغزاها : الأولى ، المقاومة السلبية والثانية التسابق على دراسة السيكولوجيا العيانية اما الاستجابة الأولى فتثبت لنا أن أشد النقاد تحاملا على السيكولوجيا الكلاسيكية مازالوا يناصرونها . والاستجابة الثانية تثبت أن السيكولوجيا الكلاسيكية تأهل مرة أخرى فى انقاذ نفسها بتغيير لغتها .

والاستجابتان تثبتان معا أن ارادة التجديد عند السيكولوجيين أقل جدية واطلاصا مما توحى به تصريحاتهم وان هذه الارادة لا تعدو أن تكون أمرا ينحصر فى حدود بعينها متفق عليها فى الأساس رغم كل اختلافاتهم ، وهى حدود يعجز معظم السيكولوجيين عن تخطيها مهما أدى ذلك الى اندثار السيكولوجيا توا ، وهذه الحدود هى التى تجعل « حل الأزمة » و « التجديد » موضوعات أكاديمية صرفة تقبل المناقشة الى ما لانهاية .

فالواجب اذن أن نكشف عن الطبيعة الحقيقية لهذه « الحدود » ولكى يتم ذلك علينا أن نتجنب استخدام الرطانة السيكولوجية

التكنيكية وأن نسقط من حسابنا الخلافات القائمة بين الاتجاهات المتنافرة في الظاهر المتشابهة في الواقع .

وهذه الاتجاهات كلها متشابهة ومتفقة فيما بينها وجميعها مثالية ، ونحن نشاهد اليوم في السيكولوجيا انصهار كافة هذه الاتجاهات في المثالية . وقد نتج عن الحركة الكبيرة للسيكولوجيا الوضعية : انصهار مثالي كبير ومثالها السيكولوجيا اللاهوتية البرجسونية في فرنسا ، والسيكولوجيا بوصفها علما «اخلاقيا» (١) والميتافيزيقا المثالية المتمثلة في المذهب المعروف بـ « وحدة الجسم والنفس » (٢) في المانيا . ولا زال التحليل النفسى بعد انشقاق يونج وأدلر - وهما أكثر مثالية من فرويد - مستمرا في تفتته وينتهى الى محاولات أكثر مثالية كتلك التي يذهب اليها « رانك » أما السلوكية بالمعنى الدقيق النابعة من اتجاه مادي فقد عجزت منذ البداية عن الثبات في طريقها الخاص ، وتولد عنها مختلف اشكال السلوكية غير الفسيولوجية ، وكلها مثالية بدرجة أو بأخرى .

وهكذا يبدو لنا أننا أمام اعتراف عام من السيكولوجيين « بالخطيئة » وتنافس على الطنطنة في العودة الى المثالية .

وخير دليل على ذلك هو « السيكوتكنيك » (القياس السيكولوجي) الذي لم يكن لديه أى مبرر « تكنيكي » يدفعه الى المثالية بل ان لديه كافة الأسباب التي تجعله غير مثالي ومع ذلك فان نظرياته تزخر بالمثالية . وعجز السيكولوجيا الحالية ليس مع ذلك الا عجزا علميا للمثالية . والسيكولوجيا من حيث أنها « علم الروح » يمكنها أن تبيع لنفسها أن تكون مثالية . وأن تكون فصلا من اللاهوت واداة للسيطرة والسيادة وليس هذا هو الحال مع

السيكولوجيا كعلم التي يجب أن تهتم بالظواهر الحقيقية والتي لا يمكن الا ان تكون مادية .

فهناك اذن أزمة في السيكولوجيا . ولكنها أبسط وأوضح مما نتصور وتتمثل هذه الأزمة فقط في أن السيكولوجيا مثالية في الوقت الذي ينبغي أن تكون فيه مادية (١) . وبعبارة أخرى يود المثاليون أن يقوموا بوظيفة الماديين، ولن يمكن للسيكولوجيا أن تصبح علما الا بالتخلي عن المثالية في حين يعجز السيكولوجيون المعاصرون عن التخلي عن المثالية . وهذه الأزمة حقيقة بالنسبة للسيكولوجيا العلمية نفسها . فالمحاولات الأكثر خصوبة انما هي ذات اتجاه مادي . فهي توصل السيكولوجيا بالفعل حتى آخر حدود المثالية ، غير أنها لما كان سندها النظري لا يعدو تلك الأشكال الناقصة للمادية ، التي لم تعد اليوم الا ملجأ للمثالية فان المثالية تغلب من جديد وتصيب بالعمق أفضل المحاولات . وهذا أمر طبيعي بالنسبة لارتباط السيكولوجيين من حيث أصولهم وتراثهم وكل نشاطهم الخاص والمهني بالأيديولوجية البورجوازية . وهذا هو السبب في أن السيكولوجيين لا يرون سوى هذه الأشكال الناقصة من المادية المسموح بهارسميا لهذا السبب، مثل مادية الفسيولوجيا والطب . وهذا هو السبب في أن جهل السيكولوجيين بالشكل الكامل للمادية انما هو بالقياس اليهم مسألة « مزاجية » . وتولد عن ذلك التناقض بين ما يتضمنه تحويل السيكولوجيا الى علم وبين ما تدعو اليه « أمزجة » الفلاسفة البورجوازيين أو الأطباء « ذوي المادية المزيفة » من السيكولوجيين (٢) وكانت النتيجة أن ظلت السيكولوجيا جامدة في مكانها .

(١) لايفى على القارئ الطابع الماركسي في هذا النقد . (المراجع)

(٢) تشير هذه العبارة الى الاتجاه السائد لدى علماء النفس في فرنسا الى

دراسة الطب . (المراجع)

والسيكولوجيا العيانية هي بالذات السيكولوجيا التي تلغى كل أثر للمثالية في علم النفس . وهي السيكولوجيا المادية التي تتخذ الموقف الوحيد النقادر على ضمان مستقبل علمي للسيكولوجيا . ولكنها في الوقت نفسه ترتبط بالمادية المعاصرة النابعة من ماركس وانجلز والمسماة بالمادية الجدلية . وتحتاج السيكولوجيا الى مادية كاملة لا تتوافر الا في المادية الجدلية ، واذا ما جعلنا منها نقطة انطلاق أمكن للسيكولوجيا أن تصبح علما . لذلك أحس السيكولوجيون الذين خاطبناهم احساسا عميقا بأنها هي القاعدة النظرية النهائية للسيكولوجية العيانية وهكذا لم نجد أمامنا الا المقاومة السلبية من جهة ، والتسابق على السيكولوجيا العيانية من جهة أخرى . وهل يمكن حقا أن يقبل المثاليون العمل ضد المثالية؟ ألن تسول لهم نفوسهم اقتناص هذه السيكولوجيا المعادية للمثالية بالقاء شبك المثالية فوقها، وقبل أن تفلت منهم نيايا سطرة ماهو « عياني »؟

وبالنسبة للنقطة الأولى نجد التباكي على الأزمة والقاء المواعظ من أجل الوحدة وتمني النبضة لعلم النفس ، الا أن هذا لا يعنى سوى شيئا واحدا وهو أن يذهب علم النفس الى الجحيم ولتبقى المثالية .

أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد فات وقت الاصطياد ، وان كانت مزورة التسابق تعطينا فرصة رائعة لنبين بالضبط الى أين تذهب السيكولوجيا العيانية ، دون أن نكون ملزمين هذه المرة باستعمال اللغة الفنية للسيكولوجيا .

فمن يستطيع اذن أن يشك من قلة الوضوح في الموقف داخل السيكولوجيا ؟ سوف نجد من جهة هؤلاء الذين يؤيدون قبل كل شيء النظام الاجتماعي وايدولوجيته ويرفضون الاشتغال بالعلم الا في حدودهما ، ومن جهة أخرى سوف نجد الراغبين في القيام بأبحاث علمية بلا « حدود » أي بغير « غمامة » تحذرواؤيتهم .

ورغم أنه لا يوجد تقريبا من يريد أن يعمل معنا بشكل جدى،
إلا أن الكل يريد الاستفادة من سطوة ما ينعت « بكلمة » عياني .
وقبل أكثر قليلا من سنة كانت السيكولوجيا العيانية هي آخر
ما يهتم به السيكولوجيون الفرنسيون لانشغالهم فى تدعيم الفلسفات
الروحية والمحافظة على الاتجاهات المدرسية انشغالا لم يترك لهم
مجالا للاهتمام بالطواهر السيكولوجية حقا . ولكن الأمور تغيرت
بسرعة لم يعدها التقدم فى فرنسا منذ الثورة . والتقدم
الذى حدث هنا ليس هو التقدم بالمعنى العادى للكلمة ولكنه تقدم
ذو أثر رجعى . فقد حدثت ظاهرة مثيرة بعد أن نشرنا كتابنا الأول
(نقد أسس السيكولوجيا - رايدر - باريس ١٩٢٨) الذى شرحنا
فيه السيكولوجيا العيانية لأول مرة . فوجدنا أشد السيكولوجيين
تجريدا « يرتدون الى انفسهم » بصورة نزامية واكتشفوا فجأة أنهم
كانوا منذ وقت طويل أنصارا للسيكولوجيا العيانية . فلقد اكتشف
الجهابذة من أساتذة السيكولوجيا التجريبية أنهم لم يشغلوا أنفسهم
أبدا بالسيكولوجيا التجريدية ، (وهذا اعتراف منهم بأنهم لم يكونوا
يدرون ما يدرسون) . أما الذين لم يقوموا بأنفسهم بهذا الاكتشاف
فقد تكفل به آخرون لحسابهم ، حتى أننا نستطيع القول بأنه لا يوجد
فى فرنسا اليوم سيكولوجى واحد يتجاسر على التصريح بعبدائه
للسيكولوجيا العيانية .

ولو قرأنا كل الخطابات التى وصلتنا وكل ما قيل وكتب
بخصوص موضوع « السيكولوجيا العيانية » لخيّل لنا أن فرنسا

لم تنجب منذ فيرسانجيتوريكس (١) حتى ظهور السيد برجسون سيكولوجي « تجريدي ، واحد » .

وقد كتب لنا الفيلسوف البارع السيد « برنشفيك » - الذي يبدو أن السيكولوجيا تدين له بالكثير « لم أكن أبدا نصيرا لسيكولوجيا القرن التاسع عشر التجريدية التي تتكلمون عنها » .
أما أستاذ مناهج البحث المعروف بالسوربون ، السيد لالاند - وهو من تدين له السيكولوجيا أيضا بالكثير ، فقد شرفنا بتذكيرنا بمحاضراته في السوربون التي تكلم فيها عن السيكولوجيا العيانية (٢) .

وكتب لنا السيد « سباير » يقول « انا متفق معكم في ضرورة البدء من العياني والرجوع دائما للعياني ويستطرد قائلا ولماذا لا تذكرون . ان السيد لالاند تكلم منذ أمد بعيد عن السيكولوجيا التي تدرس الدراما ؟ (انظر المدخل المنهجي بالمجلد الأول من كتاب ديما) . ولماذا لا تتبينون أن دي لاكروا ينطلق أساسا من الدراما في دراساته للحياة الدينية وفي تحليله للعلاقات الحية بين الفكر واللفة » .

وجملة القول : كان الجميع عيانيين وما يزالون ، ولم يتحدث كل الكتاب الا عن الدراما ، ولم يوجد في العالم الا السيكولوجيا العيانية ، وان المؤلفين في السيكولوجيا قد كرسوا دائما كل أعمالهم للسيكولوجيا العيانية .

(١) الجنرال فيرسانجيتوريكس سياسي وقائد شعب الغال في معركته ضد يوليوس قيصر ويعتبر أول من وحد الفرنسيين ووضع اللبنة الأولى في بناء فرنسا . (لاروس)
(المترجم)

(٢) نود ان يشرح لنا مسيو لالاند هنا أو في أي مكان آخر مفهومه لهذه السيكولوجيا آنذاك لاننا لا نتذكر شيئا من هذا القبيل . (المؤلف)

ولا شك أن التسابق على دراسة السيكولوجيا العيانية له دلالة ، وكان بإمكاننا ان نكتفى بتسجيل انتصارنا ببضع « كليشيهات » تقليدية مناسبة « السيكولوجيا العيانية ضرورة لعصرنا » . « لقد وجدت السيكولوجيا العيانية بحالة كامنة من قبل عند « اسلافنا » « لم تكن السيكولوجيا تحتاج الا للوعي بكيانها » . « لقد نلنا شرف التعبير عن زماننا » . وكان في امكاننا أيضا ان نكتفى بتبادل التهاني المألوفة فنشكر الذين فهموا مقاصدنا ، أولئك الذين منحونا شرف أننا فهمناهم فحسب . ولو كنا فعلنا ذلك لتحولت السيكولوجيا العيانية الى نوع من « البقدونس (١) » ؟ واعتبرنا أنفسنا سعداء بافتتاح « مطعم جديد » في ميدان الفلسفة .

الا أن هناك ثمة سببان يدعواننا الى أن نكون أقل سذاجة وأكثر تشددا . فلدينا فكرة عن مدى الصدق وكذلك عن الطابع الحقيقي لثمن هذه الانتماءات العيانية . كما أننا أبعد من أن نكون قد توصلنا الى التعريف الدقيق للاتجاه الحقيقي لما نسميه بالسيكولوجيا العيانية وليست لدينا الشجاعة ولا الرغبة في أن نقود كل الذين يريدون الالتحاق بركبنا في طرق لا يعرفون هم الى أين تسير . وخاصة أن بينهم أشخاصا يفوق حظهم من التوقير في النفوس حظنا منه .

ولدينا احساس بأنه بعد التوصل الى هذا التعريف الدقيق سوف تقل المعارك الدائرة حول العنوان ، وسوف يتوقف التسابق على السيكولوجيا العيانية . وعندئذ سوف يتحول « البقدونس » الى سم في أفواه الذين تعجلوا التهامه .

(١) *tarte à la crème* عبارة فرنسية دارجة تشير الى ما يتكرر

استخدامه او الحديث عنه في كل مناسبة بغير تمييز . (المراجع)

لقد شاهدنا طوال نصف قرن المنظر التالي : لا يوجد سوى التنظيم اللاهوتي (١) المدرسى للروح في مجال التعاليم النفسية .
ليس معنى السيكلوجيا هو (علم الروح) ؟ والروح أداة لاهوتية :
ولو لم يكن هنالك اناس لهم روح - على رأى أهل اللاهوت ومن يخدمون مذهبهم - لما أمكن الاحتفاظ بفكرة الروح ، وكان الذين ينفخون نيران الروحانية ينفخون في رماد . أما بالنسبة لكلمة «علم» فهي لا تعنى هنا معرفة ولكن تنظيما عقليا : ترتيبا مظهريا محلقا وغالبا هستيريا وخاصة بالنسبة للروحانيين المضطربين أمثال السيد برجسون . فتعريف علم النفس بأنه علم الروح هو تعريف يفضح نفسه بنفسه .

ولكن جاء عصر العلوم الطبيعية واراد علم الروح ان يصبح علما طبيعيا ، فارتدى رجال اللاهوت الملابس البيضاء وأخفوا القديس توماس (الاكوينى) فى اسطوانات التسجيل . وما دام العصر قد أصبح عصر التصريحات الوضعية وانشاء المعامل ، وحلت تعبيرات « الحساب » و « القياس » محل عبارات « الروحانية ذات الحرية والحلود » قرر رجال اللاهوت أن يدخلوا المعركة بهذا الجزء من قواتهم التى عرفت فيما بعد باسم السيكلوجيين التجريبيين أو العلميين . . . الخ ولم يكن ما يهمهم هو التمسك بالألفاظ بل انقاذ المضمون ، وعلى عكس ما نظن كان هذا « تكتيكهم » الحقيقى . بل كان أيضا قانون تطور السيكلوجيا خلال الخمسين او الستين عاما الماضية : تغيير الشكل لانقاذ المضمون .

(١) لا يخفى على القارىء ما درج عليه الماركسيون من استخدامهم لكلمة « اللاهوت » بغير تمييز فى تقدم بعض المذاهب الفلسفية والعلمية والاجتماعية .
(المراجع)

فليس كل من ارتدى رداء الكهنوت بكاهن ، ومن هنا يمكن للكهنة أن يتخلى عن مسوحيه البنى اللون ويستبدل به رداء أبيض ويظل رغم ذلك كاهنا . اذ لما كان المضمون في خطر فلا يهتم تغيير الشكل ؛ وعلى الأصح كان اهم شيء بالنسبة لهم هو تغيير هذه الواجهة فقبلوا كل أشكال الإخراج وعلى أى صورة من الصور . فاذا احتاج الأمر الى التنكر فى شكل علماء فسيولوجيا فلا مانع ، ولو استدعى الأمر أن يتحولوا الى عُدود صماء فلا مانع . . . وهكذا أثبت رجال اللاهوت انهم أخذوا من صنائعهم دكاترة الطب والعلوم فعملوا على انجاح كل هذه الكرنفالات الهزلية للأطباء الفلاسفة والقصاصين الفسيولوجيين لأنهم لم يكونوا يؤمنون بنجاحها الحقيقى . وهم يعلمون جيدا ان فى مقدرتهم ان يستمتعوا بشكل دورى بواسطة صنائع أخرى مثل السيد برجسون بلذة الادانة العلنية لعجز هؤلاء الذين لم ينتابهم العجز الا لأنهم كانوا فى خدمة اللاهوت .

ولقد تعود الحفاظ على لاهوت الروح ان يتابعوا تقلبات الحركة السيكولوجية خطوة خطوة . فكل ما ينقد لاهوت النفس يكون حسنا وسيكون كل شيء حسنا أيضا فى المستقبل طالما كان ما يقدمونه من اختراعات جديده ملائما لذوق العصر ولقد أثبتت الكنيسة دائما أنها تتمتع بحاسة تجارية مرهفة . كما استطاعت دائما أن تعرض بضاعتها بالاسلوب المناسب . فقد بحثت دائما عن الشكل الذى يفتن الجمهور لتقدم به بضاعتها القديمة وهذا هو بالدقة نفس انكتيك الذى تتبعه مع السيكولوجيا العيانية . فالسيكولوجيا العيانية ينبغى الا تكون غير مرحلة جديدة ، حلقة جديدة فى السلسلة القديمة . فهم يتصورون أن « العياني » هو « موضحة العصر » ولذا فقد تبنوا الاسلوب العياني . لأن هذا هو مطلب اليوم وهم يتمنون ان تكون محاولتنا للتصفية النهائية لسيكولوجيا الروح (ضعيفة المفعول شأنها فى ذلك شأن المحاولات السابقة) . فهم

لا يريدون أبدا أن تكون موردين لصنف جديد ، أما إذا اقتصر الأمر على تغليف البضاعة وتسليمها فلا مانع لديهم من إعطائنا هذا الحق على أن يظلوا هم أصحاب الامتياز .

لذلك يقول الجميع انهم متفقون معنا « من حيث المبدأ » ولكن ما هو هذا المبدأ فكل واحد يريد أن ينسب لنفسه اسم « السيكولوجيا العيانية » لأن كل واحد يريد أن يبدو هو المنتقد للكنز القديم ، والكل يطالبون بإطلاق هذه التسمية على لاهوت الروح المعجوز الذي يرغبون جميعا في انقاذه . وكل ما يطمح فيه أى واحد منهم هو أن يعترف له بأنه صاحب الفضل فى ذلك أكثر من الآخرين .

أما البعض الآخر فيتصور أنه أكثر مهارة وحقا وهم فى الواقع مجرد سذج ان لم يكونوا شرا من ذلك . فعلى سبيل المثال قال لنا السيد « برنشفيك » لكى يبرر موقفه أنه كان دائما مناصرا لـ « مين دى بيران » . ولما كنا قد جعلنا من الدراما موضوعا للسيكولوجيا العيانية قال لنا السيد سبار « تقولون مثلا انكم لا تعرفون معنى الحدس ، والحدس هو « الحدث » الحاسم فى دراما البحث الصوفى والفلسفى والعلمى والفنى » . وهكذا حلت البركات على الجميع : « فقد بدأ برجسون بالتاكيد من ظاهرة « درامية » حين جعل الحدس أساسا لمذهبه » . أما السيد سبير فيأخذ علينا فهمنا الضيق للعيانى . إذ أن العيانى فى الواقع يجب أن يكون الاطار الجديد الذى يتحتم ان يدخل فيه الآن المذهب المدرسى ذلك لأن « فى أعماق كل دراما بلا استثناء نجد دائما « الكليات » (الفلسفية) (١) فالانسان تحركه دائما أفكار واتجاهات وعواطف وعقد أى يتأثر بهذه الكليات . وهذا يعنى أننا سنواصل الاشتغال بالسيكولوجيا الكلاسيكية وان كنا سنسميها دراما . وسنحتفظ بنظرية الروح

(١) الكليات Les universeaux عند المدرسين هي المعانى المجردة =

ياكملها ولكننا سنسميها « نظرية عيانية » ، وهذا كل ما فى الأمر .
 ففكرة السيكلوجيا العيانية ليست لها هنا الا أهمية ضئيلة ، الشيء
 الأساسى هو أن لدينا احساس بأن العياني هو « الموضة » ولهذا يعلن
 الجميع انهم متفقون من حيث المبدأ . وهذا طبيعى طالما أن الجوهر
 لم ولن يتغير . هذا هو لب الموضوع . فلو أننا دعونا الى سيكلوجيا
 « مائية » بدلا من السيكلوجيا العيانية ولو استبدلنا « الدراما »
 « بالطريق اللبنى » (١) La voie lactée بموضوع للسيكلوجيا
 لقال الجميع اشياء مماثلة ، وذلك بشرط أن تكون السيكلوجيا
 المائية هي « الموضة » .

ولقال لنا السيد « برتشفيك » عندئذ « لقد كنت دائما مناصرا
 لهذه السيكلوجيا المائية التى تتحدثون عنها . وهكذا أحببت دائما
 « دى بوسى » (٢) .

ولكانوا قد ذكرونا أيضا بمناهج السوربون - فى أيام
 دراستنا - حيث تعرضوا للسيكلوجيا المائية . وهل هناك موضوع
 لم تطرقه مناهج السوربون ! .

ولعبر لنا حينئذ السيد سبير عن نفسه قائلا « أوافقكم على
 ضرورة البدء بالسيكلوجيا المائية . . ولكنكم تقولون مثلا انكم
 لا تعلمون ماهو « الحدس » ؟ اليس الحدس هو « الفعل » المبدئى لهذا

(١) الطريق اللبنى اصطلاح فى علم الفلك يطلق على تلك المجموعة من
 النجوم التى تنتمى اليها المجموعة الشمسية . وتتجمع النجوم عادة فى مجرات
 تتألف كل منها من بلايين النجوم التى تتحرك وتظل معا كوحدة واحدة . وتوجد
 غير مجرتنا المعروفة باسم الطريق اللبنى مجرات أخرى تسبح فى الفضاء كاقراص
 مضيئة وهى ما نراه من سطح الأرض كحجب باعثة فى السماء أثناء الليل:
 ويفقد عدد هذه المجرات بنصف بليون مجرة (الترجمة)

(٢) دى بوسى : ١٨٦٢ - ١٩١٨ مؤلف موسيقى فرنسى له مقطوعة
 أوركسترالية شهيرة اسمها « البحر » تأثر فيها بأصحاب المدرسة الانطباعية
 فى الرسم . (الترجمة)

« الطريق اللبني » والناتج عن البحث العلمى والفلسفى والنصوفى
والفنى .

سيحاولون انقاذ السيكولوجيا الكلاسيكية ومعها لاهوت
الروح باسم المائىة والطريق اللبني .

وحين يقولون لنا « نحن متفقون على المبدأ ، أما من حيث ٠٠ »
فهم يعبرون لنا بوضوح عن حقيقة نواياهم . وحيث انهم جميعاً
متفقون فيما بينهم فانهم يعتقدون باستحالة وجود أى خلاف حقيقى ،
وحيث أنهم جميعاً اتباع مخلصون عن وعى أو عن غير وعى بفائدة
أو بغير فائدة للاهوت فلا يمكنهم تصور فكرة وجود سيكولوجيا
لا تخدم اللاهوت . وكأنما يريدون أن يقولوا لنا : يجب أن تكونوا
متفقين معنا فى الجوهر فلا تحاولوا الظهور بعكس ذلك . ولا تثيروا
المشاكل فخير الأمور الوسط . وان تصريحاتكم تعد اندازا يدعونا
لتغيير لغتنا وسنعمل هذا بكل سرور ، فنحن متعودون على مفاهيم
الاصطلاحات وذلك - بعد - يجدد لنا شبابنا . ولكن لا داعى لتعدى
هذه الحدود ولا داعى للمبالغة من ناحيتكم . ولتكتفوا بالنجاح الذى
نمنحكم اياه حتى يحين الوقت - بعد أن تكونوا قد دافعتم عنا دفاعاً
مجيداً - ويصبح عليكم أن تناضلوا مع من سيدافع عنا خيراً منكم .
هذا هو هدفهم ، وتلك هى المسألة الرئيسية فى هذا الجدل . غير
أنه لم يعد للتراث الحالد السيطرة على كل الناس . ونحن نعتقد
أنه تقع على عاتق السيكولوجيا الحادية ميمة أخرى أفضل من انقاذ
اللاهوت ، وأن السيكولوجيا العيانىة ليست ببساطة غلافاً
للسيكولوجيا الكلاسيكية .

- ٣ -

إذا كان هناك تراث عظيم تنتمى اليه السيكولوجيا العيانىة
فهو التراث المادى قطعاً . فهو يرمى الى ان تكون السيكولوجيا بدون

« حياة داخلية » (١) ، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالعمليات
processus ، فهو لا يعترف بأية عمليات خارج نطاق العمليات
المادية . ويهدف النقد الذي يقوم على اساسه الى اثبات الطابع
الاسطوري لمذهب « الحياة الداخلية » . ويدور مشروعنا كله حول
المطامح الكبرى والاساسية للمادية فى السيكولوجيا : فالسيكولوجيا
العيانية والسيكولوجيا المادية هما بالنسبة لنا مترادفان ، كترادف
السيكولوجيا الوضعية والسيكولوجيا العيانية تماما .

غير أنه لم يعد من الممكن ان نكتفى بوصف السيكولوجيا
« بالوضعية » ، نظرا للظروف الراهنة فى السيكولوجيا . فكل
السيكولوجيين ايا كانت اتجاهاتهم ينسبون الوضعية لانفسهم .
فيتصور انصار النظرية الفسيولوجية القديمة انهم يحتكرون
الوضعية باسم اجهزتهم القياسية ومتوسطاتهم الاحصائية ، وانصار
السيد برجسون يدعون انهم اصحاب وضعية « ارقى » ، ناتجة عن
تقلصاتهم الحدسية . وكما اعتبر استخدام الادوات العملية فى
الفسيولوجيا فى القرن الماضى انتصارا للوضعية ، فها هو « الاعتراف
بالطابع النوعى للظواهر السيكولوجية » يعتبر اليوم انتصارا آخر
للوضعية . وقصارى القول انه حتى لو عاد القديس توماس الى
الأرض من جديد فلن يتردد بدوره فى أن يفرض علينا سيكولوجيته
باسم الوضعية . ومعنى هذا أن الوضعية فى مجال السيكولوجيا
قد صارت مجرد عنوان متعارف عليه ، بينما غرق معناها الأساسى
تماما فى المجازلات وفى مطالبة الجميع بها شكليا . لذلك كان من
الضرورى نسيان كل الفروق الطفيفة والارتفاع فوق كل الاتجاهات
وأن نرجع الى المفهوم البسيط للوضعية ، وأن نذكر ما نسيه الجميع

(١) المقصود بـ « حياة داخلية » ما كان يذهب اليه بعض الميتافيزيقيين
من وجود حياة داخلية بما هى « جوهر » مستقل . (الراجع)

فى خضم المعركة وهو ان العلم الوجودى يجب أن يدرس الظواهر الحقيقية . وكان ينبغي اذن تصفية كل الاعتراضات التى ظهرت فى المعركة السيكولوجية الى التعارض الحقيقى الوحيد وهو التعارض بين السيكولوجيا التى لا موضوع لها سوى الاسطورة والسيكولوجيا التى موضوعها الظواهر الحقيقية . وهذا هو المغزى الأول للتعارض بين السيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا التجريدية . ونحن عندما نستخدم تعبير سيكولوجيا عيانية فانما نريد فقط ان نسجل فى مقدمة برنامج السيكولوجيا الضرورة الملحة اليوم وهى الاهتمام بالحقائق .

ومن هنا نرى ان المطلوب هو اختراع « سيكولوجيا جديدة » فالسيكولوجيا العيانية ترتبط ببساطة بارادة هؤلاء الذين يطالبون أو طالبوا بسيكولوجيا يمكنها أن تكون علما لا أن تكون عرضا على المستوى اللاهوتى - الدوجماتيقى لما يجب أن يؤمن به « الشعب » ليظل النظام الاجتماعى قائما . وهى تؤكد هذه الارادة فى هذه النقطة الهامة وتبين وسيلة تحقيقها .

وكان من الممكن ان نكتفى بتعبير السيكولوجيا المادية ، لو أن السيكولوجيا المادية كانت شيئا جاهزا ولم تكن شيئا يطلب انجاره هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فلسنا بصدد تعزيز ما يقصد عادة بكلمة المادية فى السيكولوجيا ، اى السيكولوجيا التى تنحو نحو ماديا matérialisante وهى ليست مادية matérialiste بالفعل (المادية المبتذلة) فنحن لا نعمل اليوم على احياء هذه المواقف الناقصة ، فى مواجهة الهجوم الحالى التى تقوم به الروحية والمثالية بعامه ، فقد استخدمت تلك المواقف فى لحظة ظهورها كوسائل للتعبير عن المقاصد المادية ولكنها كانت عاجزة فى الواقع عن هدم صرح الروحية وأصبحت اليوم مادية « تعبيرية » démonstratif

تثبت الروحية عن طريقها مناعتها وعدم قابليتها للهزيمة . فالامر يتعلق هنا بأشكال المادية التي لم تعد تمثل سوى المكمل الرسمي للروحية وتقوم بدور الممثل المساعد في كوميديا السيكولوجيا . فالمادية الكاملة والعلمية بالفعل هي شيء آخر غير مادية الفسيولوجيين والأطباء ذات النقد الساذج . ويقتضى تحقيقها في السيكولوجيا نقيرا جذريا في الطريقة التي تصاغ بها المشاكل الرئيسية وكذلك في الوسائل المستخدمة في حلها .

فما هو الطريق الذي تسلكه المادية التقليدية في مجال السيكولوجيا ؟ انها تحاول ان تفسر الجوانب « الروحية » بواسطة المادة : الجهاز العصبي ، والاحشاء والغدد الصماء والكائن العضوي

ككل ، وتلك أكثر الطرق كلاسيكية . ولكن لم تتمكن أى من هذه المحاولات أن تصل الى هدفها ، فقد اضطرت منذ البداية أن تعهد بكل شيء الى التحسينات المقبلة في وسائل البحث العلمى ، وان تكتفى باختراع روايات لم تؤد الا للعودة الظاهرة للروحية ، وبهذا تاكدت الاسطورة القائلة بأن السيكولوجيا لن تقوم لها قائمة بدون الروحية . ولقد كان الفشل المتكرر للسيكولوجيات المستوحاة من المادية يرجع الى النقص الأساسى في الوسائل المتاحة للمادية التي يستوحونها . ذلك لأن المادية الطبية أو الفسيولوجية أو النيولوجية ليست الا رد فعل سلبى في وجه الروحية : نفى هو نظير تام لتأكيدات الروحية : لقد صببت المادية القديمة فى قالب الروحية . فهى تقبل الأسلوب الذى تستخدمه الروحية فى تحديد موضوع السيكولوجيا ، وتثير نفس القضايا ، وهى ببساطة تسمى «مادة» كل ما كانت الروحية تسميه روحا ، كما لو كانت ثلاثة كهربائية تحتفظ بالروحية . وجوهر المسألة هنا أن « الروحى Le spirituel وكل التنظيم المدرس للروح l'âme أشياء يؤخذ بها بوصفها مهمة ملزمة - على أى حال - بشيء ما قد لا يعدو الغناء مع وضع لوحة

تذكرارية فى الجهاز العصبى لهذا الذى ألقى . ومن ثم ظنت
السيكولوجيا أسيرة هذه المعارضة التى لم تنجح حتى اليوم فى
الخروج منها لأنها اكتفت بالبحث عن صورة الأطروحة فى نقيض
الأطروحة ، وهذا المنهج غير جدلى ، فالتعارض هنا بين المادة
(الروحية) والمادة (الفيزيائية) ، أما أشكال التفكير المستخدمة
فى كل من الحالىن وكذلك الأهداف فلا تزال مشتركة بينهما فليس
لدى الروحانيين والماديين القدماء سوى خطة معركة مشتركة ووحيدة
لأن كلا منهما يستخدم نفس العتاد الشكلى .

ولكى يتم اصلاح السيكولوجيا حقا كان يتعين بالذات مهاجمة
هذا العتاد الشكلى وتدمير خطة المعركة السابق ذكرها . وكان ينبغي
أن يوجد نقد للشكل يصيب كل هذا التأكيد والنفي فى صميمه بدلا
من النقد المأدى الذى الفناه فى الكتابات السيكولوجية خلال نصف
القرن الأخير والذى اكتفى بإحلال النفي محل التأكيد والعكس
بالعكس . كان علينا ببساطة أن نتناول نظام الروح كمذهب وأن
نفحص تركيبه قبل أن نندفع فى أى ترجمة حرفية أو ما يشبهها .
وهذا بانضبط ما نويناه ، ولما كان مثل هذا النوع من النقد لا يوجد
تقريبا ، لهذا ينبغي لنا أن نبتكر جهازا تكنولوجيا خاصا نرى أنه
ضرورى حتى يظهر فى الافق شىء جديد .

... وبهذا نكون قد توصلنا الى ثلاثة أشياء :

١ - ان الروحية تعمل بشكل منتظم بواسطة عدد من
الاجراءات الذهنية المستخدمة فى اختلاف ظواهر الروح .

٢ - ان هذه الاجراءات الذهنية ليست أشكالا لاغنى عنها
للفكر فى أى تصور للواقع تتناوله السيكولوجيا ولكنها تخدم أهداف
التحول المستوحاة من مصالح لاعلاقة لها بتاتا بالعلم ولا بأحتياجات
الشرح والتوضيح عموما .

٣ - اننا لن نتغلب على الروحية عن طريق الترجمة الحرفية ولكن بازالة الاجراءات الذهنية التي تؤدي اليها .
وبعبارة أخرى فانه يتضح لنا بفضل هذا النقد الشكلي ،
يتضح بكل دقة وفي بعض الاحيان بدقة متناهية ان السيكلوجيا
الكلاسيكية هي أسطورة متميزة بمعنى الكلمة . ويتضح لنا أيضا
في نفس الوقت أن الوضع الابتدائي للمادية القديمة خاطيء
كذلك . فمن العبث اذن ان نحاول تحويل الاسطورة الى شيء مادي
لكي نقضى عليها في النهاية باسم العلم ، في حين أنها تفقد كل
هيزة علمية متى أوضحنا طابعها الأسطوري . الا أنه كان ينبغي أن
يكون هذا التوضيح حقيقيا ، كان ينبغي وصف وتعيين الاجراءات
الذهنية التي تكلمنا عنها ؛ ولما كان طابعها الاساسي يكمن في
ظاهرة ان كل ما هو انساني عبارة عن تجريد منظم للاحداث
الانسانية ، فلكى نستطيع اختزالها الى عمليات فقد جمعنا كل
هذه الاجراءات تحت اسم عام هو التجريد . ويتضح من ذلك اننا
لا نقصد هنا فقط تلك العملية المبدئية التي يسميها المنطق
الكلاسيكي بالتجريد . وقد التبس على البعض نقدنا للتجريد
السيكلوجي بنقد التجريد المنطقي . لذلك اعتقد البعض انهم
واجهونا بحجة دامغة عندما قالوا انه لا يمكن وجود علم دون تجريد
وان السيكلوجيا العيانية يجب أن تستخدم التجريد هي أيضا
والا تخلت عن كونها علما ، وأصبحت بالتالي خاطئة في جوهرها .
غير أن هذا خلط مقصود ومغرض . فنحن نتكلم عن نوع معين من
التجريد عرفناه . فنقدنا للتجريد ليس شكليا في عمومه ولكنه
شكلي بالنسبة لعلم النفس . اما من حيث المنطق عامة فقد سبق
أن حددنا اننا نقصد التجريد الذي لا يتناول الا العمليات الذهنية
حيث الأمر أمر بشر يعيشون ويعملون ، ذلك التجريد الذي عندما
يواجه واقعا ، يهجر باسم ضرورة التعبير عن نفسه عين اللحظة

التونة لذلك الواقع وهكذا فان الاعتراض الذي نتكلم عنه لا يستطيع ان يصيبنا الا اذا كنا نقصد بالسيكولوجيا العيانية نوعا من الهوس « بالباشرة » ، والا اذا كان طموحنا قاصرا على الاشتراك فى الجدل العاطفى والمنافق ضد « المفاهيم » بشكل عام . ولكن السيكولوجيا العيانية ليست رومانتيكية جديدة وانما هى عدوة للتجريد حسب ما سبق ان عرفناه ، وعدوة أيضا للمفاهيم الاسطورية للسيكولوجيا الروحية .

وحيثما عرفنا السيكولوجيا التجريدية بأنها السيكولوجيا الناشئة عن لاهوت الروح، وحيثما واجيناهما اختصاصا بالسيكولوجيا العيانية ، فاننا لم نعد أن قمنا بصياغة نتائج النقد الذى وجهناه حسب منهجنا ، اذ أن هذا النقد لم يكن موجها للقضايا بل لبنائها وهذا هو السبب فى أنه لم يقصد مخاصمة القضايا التى يدافع عنها طرفا المخاصمة بل الأوضاع التى ولدت تلك القضايا . فالتعارض بين السيكولوجيا الروحية والمادية على النحو الذى فهم به هذا التعارض حتى الآن يدل على وجود تناقض حول مجموعة من المسائل الكلاسيكية ، أما التعارض بين السيكولوجيا العيانية والمجردة فيدل على اللحظة الحاسمة فى المعركة ، وعلى النقطة المحددة التى يجب أن يستند اليها كل هجومنا على الروحية مهما كانت وكيف نتخلص منها .

فالسيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا المادية مترادفان مثلهما فى ذلك مثل ترادف السيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا الوضعية . وهدفنا هو استرداد وصفى « الوضعية » و « المادية » من كل هزم السيكولوجيا التى أفسدتهما بأن تحلت بهما فقط واكتفت فى نهاية الأمر بأن تحلم بالمادية والوضعية وهى لا زالت فى اطار الروحية والميثولوجية . لقد أردنا أن نبين السبيل المؤدى حقيقة الى تملك شرعى لهاتين الصفتين .

لقد كان غرضنا حتى الآن هو أن نحدد طابع مشروعنا بأن نتخطى التخطيط التكنيكي البحث الذى سرنا عليه فى الباب الأول نبين أن نقدنا للتجريد وحملتنا من أجل السيكلوجيا العيانية يرتبطان أو بالأحرى يريدان أن يرتبطا بالحركة المادية . فكان علينا أن نقدم هذا التوضيح الاضافى ، فيما اننا لم نتكلم الا عن التناقض القائم بين المجرد والعيانى ولم نشر بوضوح الى الدور الوظيفى لفكرة الدراما فقد يظن البعض أن الاتجاه الايدولوجى للسيكلوجيا العيانية يكاد أن يكون غير محدد . والصيغ التى استخدمناها حتى الآن تعطى للموضوع دقة ولكنها فى حد ذاتها لا تستطيع أن تلزم الا الذين تحركهم مقاصد تكنيكية مخلصه ، على حين أنها تسمح للباقيين من سرب الغربان ، الذين ما أن تظهر فكرة أو محاولة حتى يحوموا حولها ، ويعبثوا بها . لذلك ساد الاعتقاد أننا نريد بناء نظام فلسفى « جديد » يقوم على فكرة انسيكلوجيا العيانية ، « نظام جديد » يأملون طبعاً أن يكون شكلاً من أشكال المثالية ، ولكننا الآن بعد أن تكلمنا عن الطريقة التى تدخل بها السيكلوجيا العيانية فى دائرة نفوذ المادية ، وعلينا أن نضيف « أننا نقصد الشكل الحديث من المادية » تبخر فى الهواء عدم التحديد الذى كانت المثالية تعقد عليه الآمال والذى اذا ما ظهر فى محاولة علمية كان ذلك دليلاً على وقوعها فى الخلط والكتابة الأدبية . وسيخيب رجاء البعض وسيقول الكثيرون أن السيكلوجيا العيانية ليست بالأهمية التى بدت بها أول الأمر ، والحقيقة أن السيكلوجيا العيانية جاءت بشيء ملفت من التجديد فى وقت وفى بلد كان ولاشك فى انتظار تجديدات ممتعة فى المجال الفلسفى السيكلوجى يفتتح بها الموسم الفلسفى القادم . لأنه رغم التهليلات الرسمية لبرجسون

والحفاوة به بمناسبة حصوله على جائزة نوبل فقد سئمه الناس. في فرنسا • وكل الضوضاء التي حدثت أخيرا لا تدل الا على أنه في طريقه الى أن يوضع في المتحف القومي • فمن المقطوع به انه لم يعد يجتذب جمهور الأدباء ولا الفلاسفة الذين يغازلونه حتى يشقوا طريقهم الى مقدمة الصفوف • فالبرجسونية تفوح منها رائحة السهرات الفرنسية فيما قبل الحرب ، بينما أصبحت « الموضة » الآن « للبارات » الأمريكية • ثم ان التحليل النفسى أثبت للجمهور أنه من الممكن أن يتحمس الناس في علم النفس لأشياء أخرى غير « حلوى » الحدس و « لبان » الديمومة *durée* • ففضل الناس عقدة أوديب والرحلة داخل السائل الرحى (الأمينوتى) على الحرافات الهزيلة مثل « الأنا الذى يتمدد » ، ويزداد اهتمام الناس بفكرة أن سلوكهم تحدده عقدة رومانتيكية أكثر من اهتمامهم بفكرة « ضرورات الحركة » التى لا طعم لها • (١)

وتضخمت الحساسية وأصبح غرق الفروق الدقيقة للمعاني في مصطلحات اللغة قصصا تصلح للخصيان ولا يمكن مقارنتها بالملاحم الباهرة للعقد • وهكذا فقد كان من المرجح أن يرحب « بكوكتيل » فلمسفى معد بواسطة التحليل النفسى وبكل ما جاءت به السيكولوجيا المعاصرة من نوادر • ولقد هللت البقرات السمان التى « لا ترتوى أبدا من الفكر والقلم » فى انتظار هذا العلف الجديد • وكادت السيكولوجيا العيانية تنتهى الى هذه النهاية التافهة • وعبر البعض أثر بعض تصريحاتنا ومواقفنا عن رأى مؤداه أننا نريد أن نسير فى ركاب « ذوق العصر » لأننا لا نقنع بالمزيا التى تعود علينا من عدم الالتزام المريح • وهكذا يأسفون لأن علم النفس العياني وهو النجم

(١) « الحدس » و « الديمومة » و « الأنا الذى يتمدد » و « ضرورات

الحركة » من المعانى البرجسونية الدائمة التى كانت تلوكها الألسن « تفلسفا » (المراجع)

اللامع في سماء الفلسفة الادبية يتردى في تفاهة المغامرة السياسية فهم يعتبرون الاتجاه المادى للسيكولوجيا العيانية نوعا من السياسة . وسيقول البعض ان علم النفس العياني لن يفلت هو أيضا من القانون المشترك بين كل العقائد « الذى يلزمها بوضع نفسها تحت حماية سلطة مادية سواء كانت الكنيسة أو حزب سياسى » . وسيقول البعض الآخر « من المؤسف حقا أنكم تضعون بما تعد به امكانيات حركة شابة وفتية من أجل التنفيذ الآلى لبرنامج محدود الأفق » * .

وهذا كله ليس الا سحبات صيف . غير أن هناك نقاطا من المفيد شرحها . سيتساءل البعض هل السيكولوجيا العيانية ذات اتجاه مادي ؟ حسنا . ولكن ما علاقة هذا بالسيكولوجيا العلمية أو بعلم النفس بصفة عامة ؟ تقولون من ناحية أن السيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا الوضعية مترادفتان ، وهذا يمكن فهمه . ولكنكم تؤكدون من جهة أخرى أن تعبيرى سيكولوجيا عيانية وسيكولوجيا مادية متكافئان . أى أن السيكولوجيا الوضعية لا بد وأن تكون مادية وهذا غير مقبول لأنه لا يعدو أن يكون موقفا مسبقا وانحيازا متعسفا . الخ . « وستتوقف المسألة دائما على مزاج علماء النفس ، كل منهم على حدة » كما قال لنا أخيرا أحد علماء النفس الألمان المرموقين . والواقع أنهم يريدون أن يعتمدوا على أحد الحلين الآتيين في ردهم علينا . أما أن تكون السيكولوجيا العيانية وضعية دون أن تكون مادية واما أن تكون مادية دون أن تكون وضعية . ولما كانت الوضعية مسألة « عامة » فإن طابعها العام هذا

يُجِبُّ لعل هذا ما قصده السيد لالاند عندما قال منيرا الى فترة من كتابنا « لقد أسس علم النفس » : « يؤسفنى أن أجد أحد تلاميذى السابقين ، وهو حاصل على الاجريجاسيون في الفلسفة ، ينظر بجدية لهذه الفلسفة الخاصة بالاجتماعات الجماهيرية » .
(المؤلف)

سيجعل المادية أيضا ضرورة عامة بينما المطلوب جعلها مسألة خاصة متعلقة بمحاولة فردية . ولكن الأمر ليس بهذه البساطة . فهذا العلم « الروحي تماما » الذي يأملون - بعد ما لحقهم من فشل - أن يثبتوا قبل نهاية الشوط انه من « علوم الروح (*) » ، مساق الى المادية بحكم أنه وضعي ، والمجال الوحيد المتاح له لكي يتخذ خط التطور الطبيعي الذي سلكته كل العلوم هو مجال المادية بالذات .

وإذا كانت الوضعية تتجه بالسيكولوجيا بالضرورة نحو المادية ، فان هذا يرجع بشكل مباشر الى كون الشرط الاول لوضعية السيكولوجيا يتفق تماما مع الهدف الأساسي للجهود المادية في السيكولوجيا . فقد اتجهت المادية دائما في مجال السيكولوجيا نحو سيكولوجيا بلا « حياة داخلية » . فكان يتعين عليها بناء على ذلك الغاء « الظواهر » الروحية بشكل أو بآخر . ومع أننا لسنا هنا بصدد الغاء الجانب الروحي لصالح المادة « الفيزيقية » الا أن اثبات الطابع الاسطوري « للحياة الداخلية » يمثل بالفعل خاتمة هذه الجهود . وعندئذ لا نصبح بصدد « مزاج » فبمجرد أن ثبت أن الحياة الداخلية « خرافة » نستطيع أن نكتشف تكوينها التدريجي واساليب تغذيتها ، وعندئذ فانها لاتعود مسألة تهم العلم ، لأن العلم الوضعي يهتم بالواقع لا بتحواله الاسطوري . ويمكننا أن نقول ان المادية استطاعت حتى في أكثر اشكالها سذاجة ان تثبت من خلال تعريفها للظاهرة السيكولوجية الخطوة الاولى التي كان يتعين اجتيازها قبل أن تتمكن السيكولوجيا الوضعية من انجاز أي شيء .

ما هو اذن مصير الاتجاه المادي نى نقد الحياة الداخلية ، وما هي الروابط الوضعية التي تربط السيكولوجيا - غير المعترفة بالحياة الداخلية - بالمادية ؟ سنتيح لنا الاجابة على هذا السؤال امكانية

(المؤلف)

* انظر في ألمانيا سبرانجر وتفرعاته .

استخلاص الشكل الاخير للمعارضة التي عبرنا عنها في اصطلاحاتنا الفنية بالثنائي « مجرد - عياني » . وهذه المعارضة صادرة من جانب السيكلوجيا المثالية من جهة ومن جانب السيكلوجيا المادية من جهة آخر

- ٥٠ -

تردد الكلام كثيرا في الآونة الأخيرة عن الاتجاه الايديولوجي للسيكلوجيا . فقد اتضح افلاس السيكلوجيا ذات الصبغة الفسيولوجية - البيولوجية - التجريبية ، ولذا أثير سؤال فحواه ما هو نوع الاطارات النظرية والمعارف التي يتطلبها البحث السيكلوجي ؟

ولا يمكن بالطبع ان نترك مسألة الاتجاه الايديولوجي للسيكلوجيا نيبا لمصادفات الاستلهام كما لا يمكن تسليمه ببساطة لمختلف المحاولات المثالية الحالية . فلا بد من تحديد للاتجاه أكثر جدية . ومن الجلي ان مثل هذا التحديد يبدأ حتما من طبيعة الظواهر التي تعنى بها السيكلوجيا . ويتفق وضع السيكلوجيا ، من وجهة النظر هذه ، مع وضع كل العلوم الأخرى . فتتجه الفسيولوجيا اتجاها فيزيائيا - كيميائيا لان معرفة الظاهرة الفسيولوجية تحتاج الى الفيزياء والكيمياء . بيد ان تحليل الظاهرة الفسيولوجية نفسها هو الذي يبين هذه العلاقة العامة ، كما يبين المعارف الفيزيائية والكيميائية الخاصة التي تتدخل في كل حالة .

وينطبق هذا الأمر على السيكلوجيا أيضا . غير أننا نحتاج هنا الى مفهوم واضح تماما للظاهرة السيكلوجية ، واضح تماما ووضعى تماما . ولا يمكن أن تلتزم السيكلوجيا الوضعية بتحديد

لاتجاهاتها تنطلق من تصور غامض أو اسطوري للظاهرة
السيكولوجية .

يقوم موضوع السيكولوجيا على مجموع الظواهر الانسانية من حيث علاقتها بالفرد الانساني ، أى بوصفها مكونات حياة الانسان وحياة الناس . فالزواج مثلا ليس ظاهرة سيكولوجية الا بوصفه زواجا ، أى عند اتمامه في ظروف معينة من جانب أفراد بذاتهم . غير ان الاحداث الانسانية في حد ذاتها ليا تركيبها وهي تخضع لحتمية يجب أن يدركها العالم النفسى لكى يتمكن بعد ذلك من النظر الى نفس الاحداث في علاقتها بالفرد ، وعليه أن يبحث عن هذه المعرفة حيثما توجد بالفعل .

لنضرب المثل بالعمل . فالعمل ليس ظاهرة سيكولوجية الا في علاقته بالفرد ، والا أصبح ظاهرة اقتصادية فقط . ولا يمكن أن تقوم سيكولوجيا العمل الا على أساس معرفة صحيحة بالعمل بصفة عامة وبطبيعته الاقتصادية ودوره ومكائنه فى التنظيم الاجتماعى القائم . ولكن اين توجد هذه المعرفة؟ لا جدوى من القيام هنا بأبحاث معتدة فالمعرفة المطلوبة متوفرة لدى رجال الاقتصاد ، وبالذات لدى رجال الاقتصاد الذين يدرسون الاحداث الاقتصادية بالفعل دون أن يكون همهم تبرير النظام الاقتصادى القائم أو التستر عليه ، أى انها تتوفر اذن في الاقتصاد الماركسى . وقد أثبت السيكتونيك أن سيكولوجيا العمل مستحيلة بدون الأسس التي يقدمها لها الاقتصاد الماركسى (١) . فظالما كانت مجرد الاكتفاء بانجاز التكاليفات

(١) هذا ليس صحيحا . وفي العبارات التالية ينفى المؤلف ما اعلمه في هذه العبارة ثم يعدله بوضوح فى صفحة ١١٥ عندما يقول : « نحن لا نريد أن نقول أن دور السيكولوجيا عبارة عن البحث عن التحديد الاقتصادى خلف الظواهر السيكولوجية : فنحن نقول فقط ان التحليل الكامل للظواهر السيكولوجية المسألة يكشف عن هذا التحديد » . (١٠) الى آخر الفقرة - (المراجع)

الصادرة من المؤسسات الصناعية الكبيرة والادارات العليا فان كل شيء يكون على ما يرام تقريبا . أما عندما نصبح بصدد استخلاص التعاليم السيكولوجية الصرفة من كافة أوجه نشاط القياس السيكولوجي ، أو عندما نكون بصدد الارتفاع الى مستوى الايضاح والتنظيم النظريين *systematization* وللخروج من فوضى الأساليب، والمناهج فان المشتغلين بالقياس السيكولوجي يترددون في أحلام مثالية . ومع ذلك فان الأسس النظرية الضرورية للقياس السيكولوجي جاهزة بالفعل ومدعمة بالابحاث المادية الماركسية . الا أن المشتغلين بالقياس السيكولوجي يحملون بسيكولوجيا حضارية مبهمة غامضة مثالية نبعت فكرتها لديم من ظروف نشأة القياس السيكولوجي لا من خلال تحليل الظواهر نفسها ، بالرغم من اعترافهم بضرورة المساهمة من جانب فلسفة الحياة .

Weltanschauung وهذا أمر له مغزى في حد ذاته .

وينطبق ما قلناه على العمل على الجريمة أيضا . فالجريمة لا تكون ظاهرة سيكولوجية الا بوصفها أحد المشاهد الفعلية في الحياة البشرية ، لأن الذي يرتكبها فعلا فرد أو مجموعة من الأفراد . غير أن ارتكاب الجريمة فعلا من جانب فرد معين أو مجموعة من الأفراد ليس كل ما في الجريمة . وبناء عليه يجب أن يكون السيكولوجي على معرفة صحيحة بالجريمة بغض النظر عن وقوعها الفعلي . أين توجد هذه المعرفة ؟ سيقوده تحليل الجريمة ، وهي حدث اقتصادي اجتماعي (١) ، مرة أخرى الى الاقتصاد الماركسي وبالتالي الى المادية الجدلية التي لا غنى عنها في عمله الخاص ويمكننا أن نقدم اثباتا بسيطا على ذلك : لا يمكننا أن نفهم الجريمة ، شأنها شأن أى

(١) يعرف كل مشتغل يعلم النفس ان تعريف الجريمة بأنها حدث اقتصادي اجتماعي تعريف تفسى كما يقوم الدليل على ذلك في سيكولوجية الجناح وسيكولوجية جنون الرقة *cleptomania* مثلا المراجع

ظاهرة سيكولوجية ، الا عن طريق مفهوم دقيق لدور السيكلوجيا
 اى بتحديد مضبوط للحتمية الفردية للجريمة ، ولا يمكننا ان
 نتوصل الى هذا التحديد الا بمعرفة التحديد الاقتصادى للجريمة .
 وبدون ذلك تكون السيكلوجيا قد تعدت مجالها ، وبتعديها نجالها
 تكون قد تعدت أيضا الظواهر السيكلوجية البحت (١) . وهكذا
 فانها لا تعود تستند الى الواقع وتصبح أسطورية لأنها ملزمة بتقديم
 رواية سيكلوجية حيث يجب أن تصمت السيكلوجيا وتترك الكلمة
 للاقتصاد . بعبارة أخرى لا يمكن أن توجد نظرية سيكلوجية الا في
 نطاق النظرية الاقتصادية للجريمة . فلن يمكننا الحديث عن مسألة
 الميكانيزم السيكلوجى للجريمة الا داخل اطار الميكانيزم الاقتصادى
 للجريمة وعندما يكون الأمر أمر ادراج الفرد داخل هذا الميكانيزم
 وتفسير دخوله هذا .

ويمكننا أن نطبق ما قلناه عن العمل وعن الجريمة على كل
 الظواهر السيكلوجية ، فهذه الظواهر ليست فى الواقع الا ظواهر
 انسانية من حيث أنها تتعلق بالفرد . تتطلب السيكلوجيا اذن
 معرفة الحدود الخاصة بالظواهر الانسانية بما هى كذلك وبما هى
 مستقلة عن الفرد . وهذه المعرفة ضرورية لكي يصبح من الممكن
 تحديد مجال السيكلوجيا وطرح المسائل بشكل صحيح وكذلك
 للمعرفة التفصيلية باتجاه وحدود ومدى الابحاث والاعتبارات
 للسيكلوجية . بعبارة أخرى فان السيكلوجيا بأسرها لا تتحقق
 الا فى اطار الاقتصاد . ولذا فهى تفترض توفر حصيلة من المعارف
 النابعة من المادية الجدلية على أن تعتمد عليها دائما . وتمثل المادية
 بالفعل القاعدة الايدولوجية الحقيقية للسيكلوجيا الوضعية .

(١) هذا تناقض فى الحد *contradictis in adjecto* يقوم عليه الدليل

ويجب الا نغفل ان النتائج المترتبة على مثل هذا الاتجاه
 للبيكولوجيا تخص العادات البورجوازية للبيكولوجيين والبيكولوجيا
 فقط ، أى القصور وأحادية الجانب الناتجان من كون البيكولوجيا
 الكلاسيكية نظام نابع من مصالح الطبقة المسيطرة ويرعاه خدامها .
 فهذا ليس فى الواقع سوى جانب واحد من المسألة . فمن المؤكد أن
 تدرج المشاكل البيكولوجية فى الأهمية والآفاق الحالية للأبحاث
 واتجاهها واسلوب اجرائها محدود بدرجة أو بأخرى بالمصالح
 الطبقيّة . وهكذا ظلت قضايا البيكولوجيا حتى يومنا هذا مجرد
 اسقاط للقيم البورجوازية ، وما الاستبطان الا « التحويل
 العلماني » للتأملات المسيحية . كما يقوم علم نفس الطفل على أساس
 أنه لا يوجد فى العالم الا أطفال البورجوازية * . ومع ان البيكولوجيا
 حاولت أن « تثرى » نفسها بالمنهج المقارن ، الا أن تطبيقات هذا
 المنهج تتعلق بقضايا وظيفية أساسا تجعل فى الواقع كل ما قد
 يترتب على العداء بين الطبقات من وجهة نظر البيكولوجيا التى تميل
 بشكل ملحوظ الى التحليل فوق هذا العداء . ومن الواضح أيضا أن
 العمل لم يتحول الى مشكلة بيكولوجية الا عندما أصبح الانتاج
 الرأسمالى فى حاجة الى استغلال رشيد للفرد فراححت البيكولوجيا
 تكمل فى نطاق البيكوتكنيك المهمة التى اضطلعت بها دائما :
 فبعد أن حولت البيكولوجيا المعتقدات التى كانت ضرورية لاستعباد

* يجب ان نلفت النظر هنا الى أن علم نفس الطفل بدأ بملاحظة
 البيكولوجيين أنفسهم لاطفالهم ، أى ملاحظات يقوم بها بورجوازيون بالفنون
 على أطفال بورجوازيين . وعندما أجريت دراسات هامة على الاطفال ، اثرت
 قضايا مجردة ليست على درجة كافية من الدقة بحيث تأخذ فى الاعتبار الفروق
 الطبقيّة واختلاف الأوضاع الاقتصادية .
 المؤلف

الجماهير الى « طبيعة » مزيفة راحت تكتشف الوسائل التي تمكنها من استعباد الانسان تماما في الانتاج * .

وسنشاهد بالطبع في كل هذه المسائل تغيرات وتعديلات في وجهات النظر ناتجة بالضرورة عن تحرر البحوث العلمية من الاغراض غير العلمية ، ولكننا لا نريد أن نتعرض لهذه التغيرات بل للطريقة التي تجعل السيكولوجيا نفسها داخلة ضمن الحتمية الاقتصادية للظواهر الانسانية ، وعلى أساس هذه النقطة سنتمكن من أن نفهم لماذا كانت السيكولوجيا العلمية مادية قطعا .

وكما أن ضرورة اعتماد السيكولوجيا على معطيات الاقتصاد الماركسي نابعة من ضرورة المعرفة الدقيقة ببناء ووظيفة الاحداث الانسانية التي تتناولها السيكولوجيا ، فان طابعها المادي بالمثل ناتج أيضا من أن تحديد الاحداث السيكولوجية نفسها هو تحديد اقتصادي وبعبارة أخرى ليست الحتمية السيكولوجية في حد ذاتها حتمية مطلقة فهي لا تؤثر ولا يمكن أن تؤثر الا من الداخل ، أي من خلال الحتمية الاقتصادية . وتتوقف حدود الحتمية السيكولوجية ومداهها على حدود ومدى الفرد نفسه . وتكون

* يجب أن نقول ان اهداف السيكتكنيك تغيرت اليوم في بعض المجالات على الأقل . وقد تحقق هذا تحت تأثير عاملين : اولهما ، قيام افراد من البروليتاريا عن طريق الاتحادات النقابية ببعض الابحاث السيكتكنيكية لا من أجل « اخضاع الانسان للانتاج » ولكن من أجل ارشاده الى أحسن طرق تحقيقه . وثانيهما الاتجاه الجديد الذي يسار فيه الماركسيون المشتغلون بالسيكتكنيك في مجال سيكتكنيك العمل . ومع ذلك فلا زال السيكتكنيك يعمل في حالات عديدة في خدمة الرأسمالية الصناعية ومن أكثر نماذجها المؤسفة حقا تلك التي قدمتها ليون بورديل وزملاؤها (أنظر مجلة la pensée

العددان ٨ ، ١٠) .

هامش بقلم « ج . كانابا » الذي اشرف على نشر هذا الكتاب سنة ١٩٤٧

للسيكولوجيا أهمية طالما كانت تتناول الاحداث الانسانية في علاقتها بالفرد ، أما اذا اقتصرنا على الظواهر الانسانية وحدها فانها تفقد هذه الأهمية . فلا كيان لسيكولوجيا العمل الا اذا كنا ننظر الى العمل في علاقته بالأفراد . وبمجرد استبعاد ربط الافراد بالعمل لا يعود العمل مشكلة سيكولوجية . كذلك يكون الزواج ظاهرة سيكولوجية بقدر تفسيره لأسباب زواج فرد معين بفرد آخر دون أن نتعدى ذلك . وهكذا يتعين على السيكولوجيا دائما أن تتواءم مع التحديد الأساسى للظواهر التى تتناولها ، أى تحديد العوامل المادية فعلا . واذا أردنا أن نعقد مقارنة نستطيع أن نقول ان السيكولوجيا تمثل بالنسبة للاقتصاد ، ما تمثله الفسيولوجيا بالنسبة للفيزياء والكيمياء . هذا اذا كان من الممكن حقا اختزال الظواهر الفسيولوجية الى مجرد عمليات فيزيائية - كيميائية ، أى أننا باختصار بصدد علم يشكل مرحلة فى الدراسة الكاملة للظواهر التى يتناولها ، علم مكرس لظواهر لا يستطيع ذلك العلم بمفرده أن يستنفذ دراستها . ولا تملك السيكولوجيا على الاطلاق « سر » الظواهر الانسانية لأن هذا « السر » لا يدخل فى نطاق السيكولوجيا . فالظواهر الانسانية تخضع لتحديد مادي وان كان هذا التحديد ليس هو المادة فحسب . ولذا فاننا نقول ان السيكولوجيا الوضعية غير ممكنة الا على أرض المادية الحديثة ، النابعة من الدراسات الماركسية .

ومن العبث أن نحاول التعرض لتحليل وعرض هذه الابحاث فى اطار هذه الدراسة الاولى « والتخطيطية » كما يقول الألمان . نحن نريد فقط أن نبرز العلاقة الوثيقة والحميمة التى تربط السكولوجيا بالماركسية ، مادامت السيكولوجيا تتناول بصفة عامة مجموع الظواهر الانسانية الحقيقية من زاوية حدودنا الفردى فقط .

وستثبت الابحاث الوضعية بشكل ملموس هذه العلاقة أكثر مما ستثبتها أى اعتبارات عامة . غير أنه لا يجب أن نتخذ من رغبتنا فى السيكولوجيا العيانية حجة للاقلال من شأن الاعتبارات العامة المذكورة . فلم يكن هدفنا فى يوم من الأيام مجرد التمسك ببعض أساليب التعبير اذا انزلت حقا عن مفهوم الظواهر نفسها . ومن جهة أخرى لا نزاع فى أن السيكولوجيين يتجهون بأنظارهم أساسا الى الطب عندما يكونون بصدد علوم مساعدة للسيكولوجيا ، بينما الدلالة الاقتصادية هى المسألة الأساسية حقا من وجهة نظر الاتجاه الأساسى للسيكولوجيا وتنظيمها . ولذا فمن المهم عندما نكون حقا بصدد أسس السيكولوجيا أن نبين هنا أن « الفطنة السيكولوجية » الحقيقية لا يمكن اكتسابها الا بمعرفة الظواهر الانسانية كما هى ، بمعزل عن السيكولوجيا (١) ، وعندئذ فقط ستمكن السيكولوجيا من طرح المشاكل بحيث تتوصل الى حلول فى متناولها بالفعل .

وتتعلق المسألة الثانية بالطريقة التى يترجم بها التحديد المادى للظواهر الانسانية من وجهة النظر السيكولوجية ، أو بعبارة أدق ، الطريقة التى ترتبط بها الحتمية السيكولوجية بالتحتمية المادية للظواهر الانسانية . وتظل المسألة بسيطة طالما كانت السيكولوجيا محاكاة للفيزياء . فهناك مجموعة من العلاقات التى تحكم العمليات بصفة عامة . هل نريد مثلا سيكولوجيا مادية ؟ علينا اذن أن نجعل بعض العمليات تؤثر على عمليات أخرى : كأن تؤثر العمليات الفسيولوجية على العمليات السيكولوجية ، والحركات الجزئية على الأفكار ، والغدد على العواطف . وستؤثر على الفكر كما تؤثر بصفة

(١) هذا تناقض فى الحد ومصادرة على المطلوب فكيف يمكننا ونحن بصدد أسس السيكولوجيا المصنوع على « فطنة سيكولوجية » مع استبعاد « السيكولوجيا » ؟ (المراجع)

عامة عمليات على عمليات أخرى وفقا لقوانين الميكانيكا أو الكبرياء المغنطيسية . وهكذا تصبح الـسيكولوجيا مادية لأن الناحية الروحانية قد تحددت باعتبارها عملية عن طريق عمليات المادة ووفقا لقوانينها .
 بيد أن مثير المشكلة يتغير تماما بمجرد ابتعادنا عن سراب العمليات فعلى مستوى الظواهر « الدرامية » تختلف طريقة تأثير الحتمية تماما . اذ يجب أن تكون هذه الحتمية نفسها « درامية » ، كما أن طريقة تحديد ما هو اقتصادى لما هو سيكولوجى وطريقة ارتباط الـسيكولوجيا بالاقتصاد أوسع وأعمق من الحتمية الطبيعية للـسيكولوجيا المادية القديمة .

ولقد تعدت الـسيكولوجيا فى الحقبة الأخيرة - والحق يقال - المفهوم البسيط للتحديد كما عرفته الـسيكولوجيا الكلاسيكية . فقد قل اهتمام الـسيكولوجيين على الأقل فى المظهر ، بتحديد العمليات فى الحياة الداخلية أو تحديد عمليات الحياة الداخلية ، واستبدل بها العمليات التى يقوم بها الكائن العضوى وهى الاستجابات الكلية للفرد فى مواجهة موقف ما . ونستطيع أن نقول أن مفهوم الحتمية أصبح بذلك أكثر انسانية . فبينما كان المثل العلمى الاعلى للحتمية فى الـسيكولوجيا فيما مضى هو الترابط المتسلسل للأفكار حينما والأفعال المنعكسة حينما آخر ، أصبحت المسألة الآن معرفة سلوك الفرد ككل فى المواقف التى تتطلب نشاطا . ولاشك اننا عند تناول التفاصيل سنجد رجعة الى المفهوم الميكانيكى البحت (وهو المثل الاعلى للسلوكية) أو الى المفهوم الروحانى كما فى Geisteswissenschaftliche مثلا بيد أنه يمكننا أن نفهم فوراً ان هذه الاخطاء ناتجة عن الخلط فى الاهداف الحقيقية للـسيكولوجيا ، ومن الجبل بما ينبغى أن يكون عليه اتجاهها

(١) الـسيكولوجيا بوصفها علماً اخلاقياً « science « morale » انظر

الأساسى • اذ يجب أن ننظر بالفعل الى تصرف الفرد فى المواقف التى يتواجد فيها • وستظهر الحتمية السيكولوجية فى مجموع استجاباته لا فى حتمية تنتقل من عملية لآخرى • فالمسألة ليست هى المعرفة - نقطة نقطة وخطوة خطوة - بالطريقة التى يمكن أن تؤثر بها اضافة معينة فى زيادة انتاجية العمل بواسطة تشابك لا ندرى كنهه بين عدد من العوامل البيولوجية - السيكولوجية - النفسولوجية بقدر ما هى معرفة ما يحدث بالفعل • فما يحتم وما يحتم يجب تعريفه بما هو متعلق بالانسان ، بما هو أفعال ومواقف الانسانية •

وبالرغم من أن الاتجاه نحو مفهوم « درامى » أى انساني للحتمية فى السيكولوجيا قد أصبح ملموساً عن ذى قبل فى الدراسات السيكولوجية الحديثة ، إلا أنه من الجلى أن المفاهيم والبرامج ما زالت تفتقر الى الدقة • والمواقع أن النظرة الى الانسان فى مجموعته وفحص استجاباته فى أوضاع محددة ليس هو كل شىء • فيجب أن ننظر الى الفرد كما هو بالفعل ، والى المواقف كما هى بالفعل • وبعبارة أخرى نحن فى حاجة الى مفهوم عياني حقا سواء بالنسبة للفرد أم بالنسبة للمواقف الانسانية • وهكذا نلاحظ على الفور أنه بالرغم من أن السيكولوجيا الكلاسيكية لا تتجاهل « دراسة المواقف » وتحاول فى أغلب الاحوال تفهم الفرد فى علاقته « ببيئته » إلا أن مفهومها لهذه المواقف وتلك البيئة مفهوم مجرد وأحادى الجانب وتدفعها أصولها واتجاهاتها الى النظر فقط الى الموقف « الايديولوجى » و « التكنولوجى » للفرد وتنظر الى البيئة من وجهتى النظر الايديولوجية والتكنولوجية فحسب مهمة الوضع الاقتصادى الأساسى هذا اذا لم يقتصر الأمر على مجرد الاعتبارات البيولوجية وهذه هى الطريقة التى تتم بها مثلاً تحليلات المدرسة الاجتماعية لدور كايم • فقد أفاض دور كايم وتلامذته فى الكلام عن

انخضاع السيكولوجيا لعلم الاجتماع ، ولكن ما معنى هذا الانخضاع !
معناه ان تتحدد « التصورات الفردية » بواسطة « التصورات
الجمعية » هذا بصرف النظر عن انخضاع السيكولوجيا لعلم اجتماع
روحاني ، وما لم تكن هذه التصورات الجمعية تعبيرا عن خبرات
البيديان الجمعي فانها تكون على أحسن الأحوال مسألة ادخال « لأشكال
اجتماعية » لا تتفق فكرتها قط مع التركيب الاقتصادي للمجتمع .
وهكذا يقتصر الأمر من الناحية العملية على النظر الى « التصورات
الجمعية » « والأشكال الاجتماعية » التي ينشأ فيها الفرد ويعيش ،
فالمسألة هنا بكل وضوح هي الموقف الايديولوجي .

ومن جهة أخرى فان الوضع التكنولوجي للفرد يؤخذ في
الاعتبار : الاستجابات التي يجب أن يكتسبها والمواقف التكنيكية التي
يجب أن يتوافق معها . ولا شك ان التخلي عن وجهة النظر البيولوجية
الصرفة (التي لا تضع الفرد في الا في مواجهة الطبيعة) والاهتمام
بالجانب الاجتماعي يعتبر تقدما نسبيا . وبالفعل لا يتعلم الطفل
فقط التنفس والرؤية والأكل والسير بل يتعلم أيضا الكلام والمصافحة
واستخدام الأدوات الشائعة . . . الخ . غير أن كل هذه الأشياء
أولية جدا وغير مؤكدة تماما . انها أولية جدا لأننا نخترع الأمثلة
لتوضيح النظريات بدلا من تحليل الأوضاع الفعلية ، وغير مؤكدة
لأننا عندما لا نبدأ من هذا التحليل فاننا نسير بغير هدى تدفعنا قوة
غامضة دون أن ندري بالضبط أين نحن .

وعلى أي حال فان هذه النظرة الأحادية الجانب من كلا
الناحيتين (الأيديولوجية والتكنولوجية) لا تصلح الا اذا افترضنا
أن التنظيم الاقتصادي ينبغي أن يظل بمنأى عن أي مساس به
بحيث لا يوجد ما يدعوا الى معرفته ، وأن « الباقي » يكفي : فهناك
مصالح غريبة على العلم تدفع السيكولوجيا نحو التركيب العلوي

الأيديولوجي من ناحية ونحو التكنولوجيا من ناحية أخرى .
ولما كانت المواقف التي يتواجد فيها الفرد طوال حياته ، والأحداث
وامكانيات التصرف التي يصادفها ، والمنبئات التي تدفعه الى
الاستجابة تتوقف كلها على الظروف الاقتصادية (اذا تركنا الطبيعة
الخالصة جانبا) ، فان كل تحليل « للبيئة » لابد وأن يبدأ بالذات
بإبراز هذا التحديد واذا استعملنا لغة « اثنه - الاستجابة » فان
على السيكولوجي في هذه الحالة أن يذرك الطريقة التي تنظم بها
الظروف الاقتصادية ، الأحداث التي يجب أن « يتفاعل الفرد معها » .
ولا تهمنا هنا تفاصيل آلية تحديد الانتقال « من الإدراك الحسى الى
الحركة » بقدر ماتيمنا بالذات ظاهرة توافق الفرد مع الظروف التي
يحكمها قانون غير سيكولوجي بالمرّة . وعلينا أن نتبع تفاصيل هذا
التوافق لا أن نحلم ببداية حركة هذه الآلية أو تلك .

وتتضح أولوية الجانب الاقتصادي فورا بالنسبة لعلم النفس
وذلك بناء على استحالة الحصول على سيكولوجية الفرد الا عن طريق
مجموعة من المتقاطعات recoupements (البيئات النابعة من مصادر
مختلفة) . فلا يمكننا معرفة الاستجابة كما هي الا بقدر حدوثها .
فلاستجابات التي تحدث تتناسب مع المواقف التي تتم فيها . وقد
حاول البعض أن يثبت كيف أن ما يسمى « عقدة النقص » عند الطفل
البروليتارى تنمو بسدة ملحوظة نظرا للأوضاع الاقتصادية فى الأسرة
البروليتارية ، كما حاولوا اثبات كيف أن عقدة النقص عند المرأة
تنشأ من ظروفها الاقتصادية ومن الوضع الاجتماعى القانونى الناتج
عن هذه الظروف . وهكذا تصبح عقدة النقص عرضا ناتجا عن تنظيم
اجتماعى معين وانه لا جدوى من اعتباره ظاهرة « أبدية » - هذا
بالطبع اذا تركنا جانبا الأحلام الرومانتيكية حول نقص الأجهزة
العضوية - ولاشك أن عقد النقص تتضمن دروسا تتعدى شكليا
الفناتى ، غير أن هذه الدروس لا يمكن استخلاصها الا اذا أغفلنا

ما يتحدد بالمواقف التي تنتج عنها العقدة ، وعندئذ تصبح المتقاطعات ضرورية . وبعبارة أخرى فإن معرفة الانسنان التي تعتبرها السيكولوجية الكلاسيكية نقطة البداية في علم النفس لا يمكن أن تتواجد بالفعل الا في النياية تماما شأنها شأن علم النفس الوظيفي العام الذي لا يمكن استخلاصه الا من مجموع أبحاث السيكتونيك بالذات ، لا كما تخاله السيكولوجيا من أن علم النفس الوظيفي العام علم نظري وأن السيكتونيك مجرد تطبيق له .

وقد تثار هنا قضية . فقد رأينا بوضوح كيف أن عقدة النقص مثلا تتحدد في نهاية الأمر بالظروف الاقتصادية (ولسنا هنا بصدد حقيقتها أو مداها الفعلي) . كما رأينا بشكل أوضح كيف تصوغ المادية القديمة مفهوما ماديا للحلم مثلا . كما رأينا (مبدئيا على الأقل) كيف أن نشاط أو خمول المخ يولد الحلم ومحتواه . غير أننا لم نر - بالعكس - كيف يمكن لنظرية الحلم أن تكون مادية اذ تخلينا في نفس الوقت عن المادية الفسيولوجية أو البيولوجية ، أى اذا لم نعترف بأن محتوى الحلم تحدده العمليات المخية .

ويجب أن نقرر على الفور أننا لا نرفض بشكل متعسف كل المحددات الفسيولوجية والبيولوجية التي توجد في الحياة النفسية ، ولا داعي للقول بأننا لا نفكر اطلاقا في نفي الأهمية القصوى للظروف الفسيولوجية والبيولوجية للفرد بالنسبة لعلم النفس . غير أننا يجب أن ندرك مدى هذا التحديد كما هو بالفعل . ولن يتحقق ذلك الا بتتبع التحليل الدرامي خطوة خطوة حتى يصل بنا الى الفسيولوجيا والبيولوجيا . ونحن لم ندن المادية الطبية الا بسبب غموضها ولأنها موقف قاطع ومانع . ومن ناحية أخرى فإن هذه قضية مجردة . فنحن لا نريد أن نقول أن دور السيكولوجيا عبارة عن البحث عن التحديد الاقتصادي خلف الظواهر السيكولوجية . فنحن نقول فقط أن التحليل الكامل للظواهر

السيكولوجية الفعالة يكشف عن هذا التحديد . فعلىنا أن نحلل
اذن الظواهر السيكولوجية كما توجد وبأساليب تسمح بملاحظتها
وفحصها ، ويتعين علينا أيضا أن نواصل التحليل حتى النهاية فلا
نغض عيوننا أو نحيد عن الطريق قبل أن نصل الى أقصى حد ممكن .
يجب اذن ألا نضع المادية القديمة والجديدة في نفس المستوى
بالنسبة للسيكولوجيا . فقد اعتادت المادية القديمة أن تخرع لكل
نظام أو مجموعة من الظواهر اطارا ماديا . ومنها مثلا النظرية
الشهيرة حول اليقظة الجزئية بوصفها علة الحلم ، ومثل هذا الأسلوب
يلائم منهاجا يستنفد أغراضه فورا ، فانه ، ما أن يشرح غرضه حتى
يصبح عديم الجدوى . ولكننا نقوم هنا بشيء مختلف تماما . فلسنا
بصدد « نظرية مادية للحلم » وانما بصدد دراسة الحلم في نطاق
السيكولوجيا ذات الطابع المادي . فنحن نحلل الحلم ونتتبع حتى
النهاية كل العوامل التي تتدخل في نشأته وتطوره . ثم ان ما يهم
هو محتوى الحلم والصراعات التي توجهه وتحده ، وهكذا نجد
أنفسنا فورا في نطاق « الحدود العادية للأحوال الانسانية » . ونحن
لا نحاول بأي حال من الأحوال أن نلعب بالمادية ، فلا نقحمها حيث
يجب أن ينبع الفهم الواضح من الدراسة السيكولوجية فقط ، فعلىنا
أن نقوم بهذه الدراسة ونترك الكلمة بعد ذلك للمادية حيث يجب
أن تتكلم بالفعل . وهذا هو كل الفرق بين المادية القديمة والجديدة .
فالأولى تجعل كل شيء ماديا بلا تعقل أو تمييز ، وهي على استعداد
لترك الكلمة للمادية في أي مكان ، ثم تصمت حيثما يجب أن تتكلم
فعلا . أما المادية الجديدة فتدرس الظواهر بطريقة موضوعية حقا ،
وبدلا من أن تختلق اختلافا تحديدا ماديا فانها تنتهي الى التحديد
المادي القائم فعلا .

توصلنا في كتاباتنا السابقة الى أن نستبدل بالمقابلة الغامضة « للسيكولوجيا الكلاسيكية » بالسيكولوجيا « الجديدة » مقابلة أدق وهي مقابلة للسيكولوجيا العيانية بالسيكولوجيا « المجردة » ومن هذه المقابلة الأخيرة التي وضحنا ضرورتها يتعين علينا أن نتوصل الى الشكل الأساسى حقا لهذه المقابلة التي تعتبر أساس « أزمة » السيكولوجيا : وهي مقابلة السيكولوجيا المثالية بالسيكولوجيا

المادية •

فمقابلة السيكولوجيا « الكلاسيكية » بالسيكولوجيا « الجديدة » تتعلق فقط بالمحاولات الصادقة أو غير الصادقة (وأغلبها غير صادق) للتخلص من التقاليد التي سارت عليها السيكولوجيا منذ نشأتها حتى القرن العشرين • وتتعلق مقابلة السيكولوجيا « المجردة » بالسيكولوجيا « العيانية » بنقد هذه التقاليد على غرار ما فعلنا • وبالرغم من ضرورة هذه المقابلة وفائدتها تكنيكية إلا أن من عيوبها أنها تعزل السيكولوجيا بكل عيوبها وضرورات إعادة بنائها ، عن الوضع الحقيقى ، الذى تعبر عنه هذه العيوب والضرورات لذا فيلزمنا أن نضع فى أساس Sou tendre هذه المقابلة مقابلة أخرى أقل شكلية ، وبدلا من أن نقصر على النظر فى الجانب التكنيكي من « أزمة » السيكولوجيا ، علينا أن نعتبر هذه الأزمة حالة خاصة من حالات النزاع بين المادية والمثالية • وبهذه الطريقة فقط يستطيع نقد أسس السيكولوجيا أن يتحرك فى مجال حقيقى تماما • فكل المحاولات فى السيكولوجيا تنتسب اما للمثالية أو للمادية شأنها فى ذلك شأن المحاولات فى الفلسفة • غير أن النقد السيكولوجى المعاصر بدلا من أن يعترف بهذا الواقع فإنه يلجأ الى حيل التمويه فى المعانى لكنى يخفى التعارض الحقيقى • غير أنه يتعين علينا ابراز هذا

التعارض ، لأننا نستطيع ابتداء من هذا التعارض أن نتناول فيما بعد التعارضات ذات الطابع التكنيكي البحت .

حاولنا في السطور السابقة إبراز ضرورة المادية بالنسبة للسيكولوجيا مما دفعنا في كثير من الأحوال الى التطرق الى السيكولوجيا المثالية . ونريد أن نقول الآن بضع كلمات حول مانعنيه بالمثالية في مجال السيكولوجيا .

لا جدال في أن الروحانية ، أو واقعية الحياة الداخلية ، كما اعتدنا أن نقول ، أكبر دليل على المثالية في السيكولوجيا . ومع ذلك فإن مفهومي الروحانية والمثالية ليسا على نفس المستوى . فالروحانية تكشف عن المثالية التي ولدتها ، وعليه فيجب أن نصعد من الروحانية الى مسار المثالية لكي نتمكن فيما بعد من التعرف على المثالية حيثما وجدت .

وتتمثل الروحانية في نهاية الأمر في بناء عالم وهمي على نمط الطبيعة الفيزيقية ، أي طبيعة ثانية . ولاشك أن هذه مناورة بارعة اذ سيحدث خلط دائم بين « الطبيعتين » . فسيكون هناك بالتأكيد معنى لما يقال ولكنه لا يتعلق بالموضوع المقصود . فواقعية احدى « الطبيعتين » ستخفي لا واقعية الأخرى وستتجه الأنظار الى الأولى ونحن نتكلم عن الثانية .

وهكذا يحلون واقعا وهميا محل الواقع الذي لا يريدون أو لا يستطيعون دراسته ، وبذلك يستبعدون من مجال الأشياء الموجودة جزءا هاما من صيرورتها : وتلك هي السمة المثالية للروحانية . فبدلا من دراسة الظواهر الواقعية للانسان يخترع عالم جديد لا واقع له . ولكي لا يقومون بما هو مطلوب منهم يدعون أنهم يقومون بما هو أفضل . وتحت ستار القيام بدراسة « حقيقية » للواقع نجدهم يدلسونها بوسائل بارعة بحيث لا نجد أنفسنا عندما نشرع في الدراسة الا أمام وهم . وليس التحول الذي سبق أن

تكلمنا عنه سوى هذه المدالسة منظمة ومقامة فى شكل أسلوب دقيق لا شعورى . ويتحول محتوى السيكولوجيا كله بعد ذلك الى مجموعة من المبادئ المعلنة ، تصبح أكثر ادعاء ومبالغة وجسارة وإيهاما بالآمال العراض لأنها ليست فى الحقيقة سوى مبادئ خالية من أى محتوى واقعى حقيقى . ولا تظهر كل مبالغة أو أمل الا فى المكان المحدد الذى حل فيه الوهم محل الحقيقة .

وهكذا يحكى الروحاني قصصا هائلة حول « ماهو نسيج وحده » sui generis . ولو نم تدلس السيكولوجيا على الواقع الانسانى لما أصبح « ماهو نسيج وحده » الموضوع المفضل لديها . ولو اكتفت السيكولوجيا بالحقيقة كما تبدو فى التجربة الانسانية لما كانت فى حاجة الى اختراع كل هذه الأساطير الخاصة بطبيعة الروحانيات : ولكن لما كان الذين يعيشون فى احيال مجبرين على الظهور بمظهر المنهمكين فى عملهم ، كذلك كانت السيكولوجيا فى حاجة الى تصريحات غير عادية حول الطبيعة الرائعة للواقع ، ذلك الواقع الذى لا وجود له ، لأنها تقصد أن تدرس الواقع مهما كان . لذلك كان لابد من تأكيد روعة واقع غير موجود لكى ينسوا ويجعلون الآخرين ينسوا واقعا قائما .

وعندما يخترعون الحياة الداخلية فانهم يفتحون ثغرة كبيرة فى صيرورة الأحوال الانسانية تؤدى ببساطة الى الفراغ والعدم . وهكذا يأتى العمل الانسانى من العدم ويعود الى العدم : فهو يصدر من الحياة الداخلية التى (بسبب عدم وجودها) لا يحدث فيها أى شىء ، ثم يعود اليها . وبإدخال الحياة الداخلية فى مفهوم الأحوال الانسانية تنشأ امكانية الوصول بها الى حيث لا يوجد مكان للواقع . وتفسر الأحوال الانسانية بقصص الجان بعد استبعاد الجان منها . وتسمح « الحياة الداخلة » بالقفز فى اللحظة التى يجب أن يحدث فيها شىء ، الى مسرح لا يمكن أن يحدث عليه أى شىء . ولذا فان

أى سيكولوجيا تعترف بطريقة أو بأخرى بالحياة الداخلية هي بالضرورة سيكولوجيا مثالية . ولهذا السبب أيضا فان أى سيكولوجيا مثالية تعترف دائما بطريقة أو بأخرى بالحياة الداخلية .

غير أن هناك أشكالا أكثر دهاء من السيكولوجيا المثالية الى جانب تلك الأشكال الفجة التي فيها تحتل الطبيعة « نسيج وحدها » محل الواقع الانساني ، أى واقعية الحياة الداخلية الفجة كما نصادفها فى السيكولوجيات الروحانية الواضحة والصريحة . غير أن الفارق يتمثل ببساطة فى عدم إبراز واقعية الحياة الداخلية مع الإبقاء على العدم مصدرا ومصيرا للعمل الانساني : وهكذا يستبدلون بفكرة الجواهر مقولات « الشكل » و « البناء » و « الشخص » ويضعون هذه المقولات قبل وفوق الظواهر الروحانية ، غير أن كل ما هو أساسى فى فرض الحياة الداخلية يظل قائما ، وهو أن يكون هناك ميدان سباق لا تجرى فيه سوى الأشباح . فسواء وضعوا فى مقدمة تلك السيكولوجيا فكرة الشكل أو البناء أو الدلالة أو الشخص فاننا نظل فى عالم الأشباح . سيظل هناك دائما شيء آخر غير مجموع الظواهر الانسانية الحقيقية - هناك دائما « لا شيء » يوضع فى أساس « شيء ما » - وتتحرك هذه الأشباح الشفافة فى مجال كله شفافية بلا رؤية : معجزة الأشياء الوهمية التي تستطيع تحقيق نتائج حقيقية .

بعبارة أخرى فان السمة الأساسية للمثالية ، فى السيكولوجيا وفى غيرها ، تتمثل فى تحويل الأشياء الواقعية الى عدم ، أيا كانت طبيعة هذا التحويل وطريقة وصف هذا العدم فيما بعد . وبالفعل نجد فى مجموع الاتجاهات السيكولوجية سلسلة متدرجة متصلة من درجات الروحانية ، ابتداء من أكثر الروحانيات فجاجة حتى أكثر المفهومات هباء للعدم . غير أننا نجد أنفسنا دائما فى لحظة تصبح فيها الصيرورة مجرد سحر ، فيبتلاشى الانسان الذى يعيش

ويعمل وتتلاشى معه الأشياء التي يعملها والأحداث التي يرتبط بها بحيث يترك مكانه لهذا « اللاشيء » الذي يجب أن يولد منه مرة أخرى بكل ما يعمل وما يحيى .

وقد احتجت الاتجاهات السيكلوجية ذات المنبع المادى دائما على هذا التحول و ضد هذا التلاشى فى العدم . فلم تعترف قط بأن شيئا ما يوجد ويعمل كما توجد وتعمل بقية الأشياء العادية يمكن أن يصبح فجأة لا شىء لمجرد استمراره فى وجوده لوعمله . وهذا ما يحدث بالنسبة للاحساس . فالمنبه يودى الى التنبيه الذى يعقبه الاحساس ، وتستمر العملية ولكن الاحساس يصبح - باسم كل ما يوجد ويعمل - لا شىء . لقد بدا للفلاسفة والسيكلوجيين ذوى الاتجاه المادى دائما ، أن التحول الفجائى للحركة الى فكرة والفكرة الى حركة وتحويل التقلصات الحشوية الى انفعالات والانفعالات الى ايماءات نوع من تحويل الشىء الى عدم وتحويل العدم واللاشىء الى شىء . ولذا حاولوا دائما الاحتفاظ « بالشىء » . وهذا هو السبب فى أنهم بحثوا ومازالوا يبحثون عن « الشىء » الحقيقى الموجود منذ البداية ، أى المادة الكامنة وراء العاطفة والفكرة والارادة . غير أن هذا الشكل الأول للمادية لا يعبر الا عن العزم على عدم الاعتراف « بالتحويل » وهى الامكانية الوحيدة أمامه طالما استمرت السيكلوجيا فى اثاره القضية الأساسية بالطريقة الكلاسيكية : جسم « عار » فى مواجهة طبيعة « عارية » .

ان الاسلوب الذى سبق ان أشرنا اليه لتغيير القضية الاساسية فى السيكلوجيا يجعل « الواقع الانسانى » لا « المادة » هو « واقع » انسيكلوجيا . وقد يعوز هذا التعبير الوضوح الاكاديمى ، الا انه لا جدوى هنا من تعقيد الأمور . فالزواج والجريمة والعمل وقائع انسانية وتمثل هذه الوقائع وغيرها من مجموعة الظواهر الداخلة فى نفس النطاق « واقع » «السيكلوجيا» الذى سميناه «الدراما» .

وسنظل في مجال الأشياء الطبيعية والواقعية طالما بقيت السيكولوجيا في هذا المستوى وطالما تعلق التأكيد والوصف أو النظرية بالتطورات انفعالية للانسان أو للبشر . اما السيكولوجيون المثاليون فانهم يهجرون هذا الواقع لكنى يصلوا الى العدم .

والمثالية وحدها هي التي تتمسك « بالحكم السيكولوجي المسبق » préjugé اي بالرأى القائل بان في وسع السيكولوجيا تقديم تفسير نهائي لأي شيء . كما أن « الحكم السيكولوجي المتحامل » هو من الناحية الأخرى دليل دائم على المثالية . وهكذا فان كافة المدارس التربوية المؤسسة على السيكولوجيا وحدها والتي لا تتوقع التغيير الا بمعجزة تحدث في «الداخل» هي مدارس مثالية لأنها في نهاية الأمر تعتبر العدم منبعاً لحدث حقيقي أو مجموعة من الاحداث الحقيقية . وينطبق هذا ايضاً على « المعرفة بالانسان » بصفة عامة . ان القول بان هذه المعرفة ممكنة فقط بالطرق التي اصطلح على تسميتها « سيكولوجيا » أو القول بان الكلمة الأخيرة تبقى للسيكولوجيا ، هو محاولة لتفسير الجبن « الجروير » * بالثقوب التي تتخلله ، أي تفسير الشيء بالعدم .

والحق ان السيكولوجيا لا تعرفنا ولا تستطيع أبدا أن تعرفنا بأى بداية . فهي ليست في « البداية » ولكنها في « الوسط » . فلا يوجد في الانسان أي شيء أو حدث أو ظاهرة تستطيع السيكولوجيا أن تدرسها دراسة كاملة أو ينبغي أن تقول الكلمة الأخيرة فيها . فكل ما يحدث لانسان يتقرر بدقة من خلال مجموع الاحداث التي يعيشها ، غير ان هذه المجموعة من الاحداث مترتبة هي ايضاً على البناء الاقتصادي وهنا نستطيع بالتأكيد ان نتكلم عن تحديد تفصيلي نقطة نقطة . اما محاولة اعتبار

* gruyère نوع من الجبن الفرنسي تخلل افرامه ثقوب واسعة

(الترجم)

التفسير « السيكولوجي » تفسيراً نهائياً ولو في معرفة الانسان فيكشف فوراً عن الموقف المثالي بالنسبة لمجموع الاشياء الانسانية .
وعندما نقر بان السمة الاساسية للسيكولوجيا المثالية هي التحول الى العدم فاننا نقف على ارض واقعية الحياة الداخلية .
والمسألة تبدو بسيطة الى حد السذاجة ، فلما كانت الحياة الداخلية لا شيئاً فكل محاولة للالتجاء اليها ليست في الحقيقة سوى رغبة في دلس الواقع ، فاذا ما استبعدنا الواقعية نفسها كمرجع ماذا يتبقى ؟ لا يبقى الا الافكار « الصرفة » اي « الدلالات » . وهذا هو الشيء الوحيد الفعال الذي يتبقى للسيكولوجيا العادية في حالة تخليتنا عن كل حقيقة فيما هي بالذات noumene أو فيما هي ظاهرة (١) لنا هو « روعي » لأن « العواطف » نفسها ليست هنا سوى دلالات « عمياء » اي انها تكون مسبوقة في افتعال بدون دلالاتها .
فالسيكولوجيا الكلاسيكية تقول ان شخصاً ما يتصرف بطريقة ما لانه يفكر في أمر معين فاذا جردنا التفكير من كل واقعية تتبقى لنا « دلالة » صرفة وبسيطة وهي ما يفكر فيه الشخص . ومع ذلك فان فعله حقيقة . فهو لم يكتف فقط بالقيام « بحركات » ولكنه أثار حدثاً انسانياً ترتبت عليه أحداث واقعية كأن يرتكب جريمة مثلاً . وهكذا لا يمكن تفسير العمل الحقيقي أو الحدث الانساني - الذي تنتخبط واقعيته الفرد نفسه - في السيكولوجيا العادية الا « بدلالته » : فالسمة الاساسية للسيكولوجيا المثالية هي في نهاية الامر تفسير الاشياء الحقيقية بالدلالات .

نستنتج مما سبق ان السيكولوجيا كما هي في العادة مثالية في الاساس . واذ تجاوزنا عن الواقعية ، أي عن دراسة الحياة الداخلية التي لا تستطيع السيكولوجيا العادية أن تقوم بها (لأن

(١) المقصود هنا ال noumene (الشيء بالدلات) وال phénomène

(المراجع)

(الشيء الظاهري) عند كانط

الحياة الداخلية ليست حقيقة) وأخذنا فى الاعتبار ما تقوم به فعلا لوجدنا ان السيكلوجيا هي النظام الذى يتناول الظواهر التى « يجب » تفسيرها بدلالات فحسب والذى يؤكد أيضا انه توجد فعلا ظواهر تفسر بهذه الدلالات . والظاهرة السيكلوجية هي ظاهرة تبدو مترتبة على دلالة ، والتفسير السيكلوجى هو التفسير الذى يشرح الاشياء بالدلالات .

وهذا هو بالدقة الشيء المستحيل . ولا تظهر هذه الاستحالة بالطبع طالما كانت السيكلوجيا تختار ظواهرها من بين الاشياء الواقعية . ولهذا تختار السيكلوجيا أشياء غير واقعية بالذات كنقطة بداية حتى لا تتضح هذه الاستحالة . غير أننا تضطر الى الاعتراف بهذه الاستحالة بمجرد موافقتنا على اتخاذ الاشياء الواقعية نقطة بداية . فالاشياء الواقعية لا تفسرها بالفعل الا أشياء واقعية ولذا لا بد من تغيير كل شيء ، لا بد من تغيير مفهوم الظاهرة السيكلوجية لكى لا تهتم السيكلوجيا الا بالوقائع ، ولا بد من تغيير فكرتنا عن التفسير السيكلوجى حتى يفسر الاشياء بأشياء أخرى . وهكذا يتلاشى كل مفهوم قديم لعلم النفس من حيث هو مفهوم مثالى فى الأساس . واذا كنا نحتفظ بنفس الاسم القديم للابحاث الجديدة تماما فذلك بقصد تيسير الامور .

- ٧ -

يوجد اذن مفهومان للسيكلوجيا يواجه كل منهما الآخر : يؤمن المفهوم الاول بانه توجد حقائق تفسر فى نهاية الامر بدلالات وتلك هي السيكلوجيا المثالية . أما المفهوم الثانى فلا يريد أن يفسر الحقائق الا بحقائق أخرى وتلك هي السيكلوجيا المادية . وينطلق المفهوم الاول من « الحكم السيكلوجى المنحاز سبقا » ،

أما المفهوم الثاني فلا يعترف بهذا الحكم المنحاز سبقا بل يستخلص الطواهر السيكولوجية من خلال مجموع الطواهر الانسانية العادية دون، أن يدلسها ليحل محلها صورة محولة تحاكي الطبيعة الفيزيقية، وهو بعد ذلك يفسر الطواهر بظواهر أخرى من نفس النوع . ويعتبر المفهوم الاول أن المبدأ الاخير فى التفسير هو العدم أو الدلالات فى أحسن الاحوال . أما التفسير الاخير بالنسبة للسيكولوجيا المادية فهو ذلك الذى يحدد الطواهر الانسانية ، تلك الطواهر التى لا تدرس السيكولوجيا سوى احدى جوانبها .

قد يبدو أن كل ما سبق يعوزه الكثير من الدقة . وهذا صحيح بالفعل ، ولكن هذه الاشياء لا تتم كلها مرة واحدة ، وكل ما يعينف هنا هو تحديد الاتجاه الحقيقى الذى سيسير فيه نشاطنا من الآن فصاعدا . وقد يعتقد البعض اننا لم نبغ سوى اثراء ترسانة لطائف المعانى Nuances ، ولكننا أردنا أن نثبت ان كل لطائف الحركة السيكولوجية الحالية كاذبة وعقيمة وان الاتجاه الوحيد الذى سيتيح للسيكولوجيا امكان تقديم شىء مجد حقا هو الاتجاه المادى الحديث . وأردنا أن نثبت أيضا ان السيكولوجيا المادية لا تواجه سوى عدو واحد بالرغم من التشابك المعقد للمحاولات والاتجاهات المختلفة ، هذا العدو هو السيكولوجيا المثالية . ولا يوجد تعارض الا فى هذه المسألة أما السيكولوجيون الذين يدعون لآراء تبدو متباينة تماما فى المظهر فهم فى الواقع متفقون تماما .

ونحن نعلم انهم سيواجهوننا مرة أخرى وبقوة ، بالحجة التى واجهونا بها من قبل . فلتقيموا اذن هذه السيكولوجيا العيانية أو المادية التى تتكلمون عنها . وقد سبق ان قلنا مرارا ان العيب لا يأتى من جانب الابحاث التى يسير بعضها فى الطريق الصحيح

ولكن من جانب النظرية التي لا تتفق ابدا في أى موضع منها تقريبا مع ما يجب أن يكون • نحن اذن في وضع يستدعى في الوقت الحالى مزيدا من النقد • فنحن لا نخشى أن تطمس فكرة هذا النقد ولكن نخشى أن يعترها الغموض اذا تركناها من أجل أبحاث تفصيلية قبل أن تصبح واضحة تماما ، على حين أن هذه الابحاث ستتم بعدئذ وستتحقق في اطار مفهوم السيكلوجيا التي تكلمنا عنها •

ملحق

عام النفس لعام والسيكرونيك

لاشك انه لم يفوتكم ان السيكلوجيا لم تتمكن بعد خمسين عاما من المحاولات من تكوين فكرة واضحة عن اسسها . فهي لم تجدد الظاهرة السيكلوجية والمنهج السيكلوجي بطريقة يقبلها كل علماء النفس . ويرجع السبب في هذا الوضع الى عاملين : فمن جهة لا يمكن معالجة لب تعاليم السيكلوجيا التقليدية وخاصة مذهب واقعية الحياة الداخلية وفقا لمفهوم العلوم الوضعية لانها تنبع من أصل غريب على التجربة . ومن جهة أخرى لا زالت هذه التعاليم تعيش بعناد غريب في أغلب المحاولات وتعرقل الجهود الطيبة المبذولة .

لذا يتجه الاهتمام الأول للمحاولات الجديدة المعاصرة نحو تصفية السيكلوجيا الكلاسيكية ، اما بالتخلي تماما عن الافكار التقليدية واما بابرار خطأ أو عقم اساليبها الاساسية .

وقد أثبتت خبرة البرامج المختلفة التي وضعت في الحقبة الأخيرة والتي لم يفلح اى منها ان يكون مرضيا تماما أن حل مشكلة اسس السيكلوجيا لن يتحقق عن طريق تأملات نظرية محض ، وان

غريب تماما عن تعاليم الحياة الداخلية والاهتمامات المجردة لعلم
النفس العام الحالي ؟

٢ - ماهى مبادئ ومفاهيم علم النفس العام فى المنظور
المشار اليه ؟

ويمكن اختصار هذين السؤالين الى سؤال واحد هو :

كيف يمكننا أن نتصور اليوم علم نفس عام مستخلص حقا
وبدقة من التجربة ؟

” أنتهى ”

تحت إشراف د . لطفى فطيم

ستشر هذه السلسلة الكتب المؤلفة والمترجمة ذات الاتجاه التقدمى والتي تتناول مختلف قضايا علم النفس . وتفتح على كافة مدارس علم النفس وتشجع الأفكار النظرية والاقتصادية والتي تتناول نفسية وشخصية المواطن العربى .

وتحت الطبع فى هذه السلسلة:

- ١ - شرنوك هولمز يقابل سيجوند فرويد (رواية) .
تأليف : نيكولاس ماير وترجمة : د . لطفى فطيم .
- ٢ - الأعتراب . تأليف : د . نبيل أسكندر .
- ٣ - اليسار الفرويدى ترجمة : د . لطفى فطيم وشوقى جلال .
- ٤ - الإرشاد النفسى بين النظرية والتطبيق تأليف : د . لطفى فطيم .
- ٥ - الماركسية ونظرية الشخصية تأليف : د . فرج أحمد فرج .
- ٦ - نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية .
تأليف : د . لطفى فطيم ، د . أبو العزائم مصطفى .
- ٧ - علم النفس والموسيقى . تأليف د . لطفى فطيم .
- ٨ - علم النفس الطفل المعوق : تأليف : سى . سى . رونيشتين .
ترجمة : د . بدر الدين عامور .

المكتبة التقدمية

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة : بقلم د. لطفى فطيم	
تصدير : بقلم الأستاذ الدكتور مصطفى زيور	٣
الباب الأول : علم النفس الأسطوري وعلم النفس العلمى	١٧
الباب الثانى : الى أين تتجه السيكلوجيا العيانية	٢٩
ملحق : علم النفس العام والسيكوتكنيك *	١٢٧

Aram Kerkuky
Mouyn

جورج بوليتزير فيلسوف ماركسي فرنسي لمع اسمه فى صفوف الحزب الشيوعى الفرنسى فى العشرينات وأشتهر بكتابه عن العادية الجدلية والذى أحتوى المحاضرات التى كان يلقاها فى الجامعة العمالية لتعريف الطبقة العاملة الفرنسية بتلك الفلسفة وأهتم دائما بقضايا علم النفس ، وكتب فيها موضوعات مختلفة وكانت له وجهة نظر متميزة .

وقد عمل فى صفوف المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الالمانى أثناء الحرب العالمية الثانية وقبض عليه الالمان وأعدموه .

المترجم

الدكتور لطفى محمد فطيم من الأسماء المعروفة فى مجال علم النفس فى مصر - حصل على الدكتوراه من جامعة عين شمس ، وعلى دبلوم العلاج النفسى من أنجلتسرا . أشغل بالتدريس الجامعى فى مصر والبلاد العربية - نقل الى العربية عدة مؤلفات هامة فى علم النفس مثل : علم النفس فى مائة عام ، ونظريات الشخصية اليسار الفرويدى وتخصصه الدقيق هو الإرشاد النفسى وله فيه مؤلف هو الإرشاد النفسى والتوجه التربوى . وقد أنتخب عضوا بشعبة الإرشاد النفسى بالجمعية النفسية البريطانية عام ١٩٨٥ .



دار شهدي للنشر

١٦ شارع أسماعيل محمد - الزمالك - القاهرة